

الكتاب: الولاية التكوينية ، الحق الطبيعي للمعصوم (ص)
المؤلف: الشيخ جلال الصغير
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة: الثانية - مزيدة ومنقحة
سنة الطبع: ١٤١٩ - ١٩٩٨ م
المطبعة:
الناشر: دار الأعراف للدراسات - بيروت
ردمك:
ملاحظات:

الولاية التكوينية
الحق الطبيعي للمعصوم عليه السلام

(١)

مفاهيم الإسلام (٨)
الولاية التكوينية
الحق الطبيعي للمعصوم عليه السلام
دراسة نقدية لعقيدة تنكرت
لهويتها فتنكبت عن الطريق..
جلال الدين علي الصغير
طبعة ثانية ١٤١٩ - ١٩٩٨
دار الأعراف للدراسات
بيروت

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم
ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أنخلق
لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله
وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما
تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم
مؤمنين

(آل عمران / ٤٩)

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يريد إليك طرفك فلما
رآه مستقر عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن
شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم
(النمل / ٤٠)

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى الهداة
الميامين من آله الطيبين الطاهرين.
من دواعي السرور والتوفيق أن تنفذ الطبعة الأولى
من هذا الكتاب في مدة قصيرة جدا لم تتعد الأسابيع
الستة الأولى التي أعقبت صدوره، وكان الطلب عليه
شديدا إلى الدرجة التي أوقعت المؤلف بحرج شديد مع
أولئك الذين كانوا يلحون بطلب نسخة منه، ظنا منهم أن
جواب نفاذه لا يتلاءم مع الواقع!! حيث إن الكتب التي
تنفذ بهذه السرعة محدودة جدا، ولكن هذا النفاذ ألجأ
بعض القراء إلى تداول نسخة واحدة بين أكثر من قارئ،
فيما راح الكثير من هؤلاء الأعراء يستنسخون الكتاب

بصور مختلفة.

كل ذلك بالرغم من أن توزيع الكتاب قد لاقى عننا متوقعا من الجهة التي تولي الكتاب مناقشة أفكارها - عملا بمبدئها المتعارف في الحوار -!. حيث لوحقت بعض المطابع ودور النشر التي كانت هذه الجهة تتوقع أن تتولى توزيع الكتاب، وأحيط اقتناء الكتاب بجو إرهابي، كان الهدف منه هو منع القارئ والمهتم بالشأن العقائدي من تداول هذه الأفكار التي عدها البعض محرمة سياسيا واجتماعيا.

وبطبيعة الحال كانت ردود الفعل متفاوتة بشأن الكتاب، ولكنها رغم هذا التفاوت كانت متوحدة في شأن أهمية الكتاب، وفيما كانت كلمات الشناء على جدية المناقشة وعلميتها قد وسمت الأعم الأغلب من تكم الردود بما فيها ردود بعض المعنيين بجهة المناقشة، إلا أن البعض كان قد أعرب عن استياءه من ذكر بعض الأسماء بشكلها الصريح، معتقدا أن التعرض للأسماء قد خدش بجدية الكتاب، حتى أن بعضهم تمنى على الكاتب أن يحذف هذه الأسماء في الطبعة الثانية للكتاب، والبعض الآخر حاول أن يخدش بجدية المناقشة لأنها تتناول فكرة لا تتمتع بالجدية في الفكر الإمامي، على أن البعض الآخر حاول أن يغمز بعلمية الكتاب من خلال

كون الكتاب قد تعرض لموضوع علم الإمام (عليه السلام) وهو لا يشترك مع موضوع الولاية التكوينية، مما أخرج الكتاب عن الطبيعة العلمية الأكاديمية التي تفترض أن يعالج الكتاب موضوعا واحدا فحسب، وأغرب ما في هذه الردود ادعاء الجهة التي ناقشنا أفكارها أن الأقوال المنسوبة إليها لا صحة لها، وبتعبير البعض أنها من تحريفات الكاتب!!.

أما إجماع ردود الفعل فقد كان منصبا على أن الكتاب لم يكتب بلغة يمكن للشارع الشعبي أن يفهمها، وقد توجهت الأنظار إلى الاتفاق على عدم تيسير الدليل العقلي لفهم هذا الشارع، هذا فضلا عما عم الكاتب من سباب وشتائم من بعض الجهات!!.

وإني في الوقت الذي أدين فيه بالشكر لجميع الأخوة الأفاضل من علماء ومثقفين ممن شملوني بلطف كلماتهم المادحة أو الناقدة، فإني أود أن أعلق ببعض الكلمات والأفكار على ما أشرت إليه من ردود الفعل فأقول:

أثار دهشتي طلب البعض أن أحذف الأسماء التي تعرضت لها بالمناقشة، وسبب ذلك يعود إلى أن الاعتراض كان يمكن أن يكون مقبولا لو أن ذكر هذه

الأسماء قد اقترن بالتجريح والانتقاص، فيما يشهد متن الكتاب أن أي شيء من ذلكم لم يحدث، خلا ما أشار إليه البعض بأن التعرض للآية: (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) (١) قد ابتدأ بالقول بأن فلانا قد خالف الإمامية في جملة من المسائل بما فيها موضوع الآية، وهذا الأمر ليس بدعا من الأمور، ولا هو بالغريب فإن كان الأمر يتعلق بتفسير الآية فلعمري قد خالف الإمامية مخالفة صريحة جدا، فلا أحد من هؤلاء متقدميهم ومتأخريهم فضلا عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) قد قال بقوله، بل لقد ورد في الحديث الصحيح عن صادق آل محمد (عليه السلام) تكذيب ولعن لمن يقول بما قاله الرجل! (٢) وأما إن كان الأمر يتعلق بالمسائل الأخرى لعقيدة الإمامية ولوجدانياتهم وفقههم، فلعمر الحق لقد ذهب بها عريضة!! (٣) كما سيأتي الإشارة إلى ذكر بعضها عما

١ - الرعد: ٤٣.

٢ - صدر كتابنا (من عنده علم الكتاب؟) مؤخرا ويستطيع المرء أن يستجلي حقيقة المخالفات الكبرى التي اقترفها المعنى بعيدا عن خط أهل البيت (عليهم السلام).

٣ - يمكن الاطلاع على مقدار مهم من هذه المخالفات في كتابنا (الإمامة: بحث في الضرورة المهام) الذي نأمل أن يرى النور عما قريب إن شاء الله، وكذا على مقدار أكبر في الكتاب الموفق لسماحة الأخ الحجة السيد جعفر مرتضى العاملي (حفظه الله تعالى) الموسوم بخلفيات كتاب مأساة الزهراء عليها السلام، وكذا على كتابنا القادمين: الفقه الإباضي (فقه إباحة أم استباحة دين)، وكذا كتاب التحريفية الجديدة المعالم والتداعيات.

قريب، ولهذا فليس في الأمر ثمة تجريح خاصة وأنها من نمط ذكر ما هو واقع، وهذا الواقع يتم الدفاع عنه، والترويج له بشتى وسائل الدعاية المقروءة والمسموعة والمرئية والألكترونية (الإنترنت)، دونما أي تردد. أما ذكر اسم صاحب الفكرة أو الموضوع أو الكتاب الفلاني، فهو يمثل توجهها لحفظ الأمانة العلمية، فما دامت الفكرة لفلان، وهي من النمط المنشور والمتداول، فما الضير في نسبتها إليه، فإن كان في الفكرة ما يجرج سمعة هذا الشخص، فما أولاه في أن لا يتحدث عنها أصلا، وما دام أنه لا يجد في ذكرها ونسبتها إليه بشكل رسمي أي غضاظة، بدليل ترويجه لها (٢)، فعلام نتحرج

١ - ينتشر الحديث عن نفي الولاية التكوينية في مواضع عديدة من كتب الرجل وأبحاثه، فعلاوة عن مقال: صورة النبي محمد (ص) في القرآن المنشور في العدد ٦٥ من مجلة الثقافة الإسلامية الصادرة من دمشق، وهناك أيضا مقال: مع الشيخ المفيد في تصحيح الإعتقاد المنشور في مجلة الفكر الجديد الصادر في لندن، العدد التاسع، وكذا في مجلة المعارج الصادرة في دمشق: ٢٨ - ٣١. هذا علاوة على العديد من المحاضرات المسجلة صوتيا.

نحن في نسبة هذه الأفكار إليه!.
أما دعوى أن هذه الأقوال لم يتحدث بها الرجل،
فهي - على أقل التقادير - تغطية على واقع تشهد له
العديد من الكتب والأشرطة المسموعة والمرئية، ويمكن
الاطلاع عليها بمنتهى السهولة فلقد أشرنا إلى مواضع هذه
الأقوال في كل نسبة.

أما عن جدية الفكرة المطروحة للنقاش، فالكلام
فيها يتمحور ضمن اتجاهات عدة نذكر منها ما يلي:
أولها: أن الفكرة المطروحة (الولاية التكوينية) هي
من الأهمية بمكان، بما لا يمكن لأحد التنصل منها، اللهم
إلا أن يخرج من دائرة الملة المحقة، لأن حذفها من البنية
العقائدية ولو بمفردها سيؤدي إلى ثلمة في الهيكل
العقدي لهذه الملة، حيث إن التركيبة العقائدية لأي اتجاه
تمثل في واقع الحال الخريطة الهندسية له، ومعلوم أن
هذه الخريطة يمكن لي إخلال بها أن يعرض مجملها إلى
التآكل والانحيار مع تقادم الزمن، فهذه الفكرة شأنها شأن

جميع الأفكار تتربط عضوياً مع بقية المنظومة الفكرية التي تحكمها، وإسقاط واحدة من حلقات هذه المنظومة سيؤثر بمنتهى السلب على مجمل هذه المنظومة، ولهذا فإن من المسؤولية الشرعية بعائق أهل الإيمان هو إثبات هذه العقائد والدفاع عنها طالما أنها ثبتت بالطرق الشرعية، وخصوصاً إن النافي لها، أو المستخف بها لا يملك دليلاً على ذلك، وهو الأمر الذي سيلحظه القارئ الكريم بسهولة في هذا الكتاب.

وثانيها: إن فكرة الولاية التكوينية قد وردت فيها آيات قرآنية كثيرة جداً وروايات صحيحة وموثوقة يعضد بعضها بعضاً، فالاهتمام بها والدفاع عنها دفاع عن القرآن والسنة الشريفة.

وثالثها: إن فكرة الولاية التكوينية لم تكن هي الفكرة الوحيدة المتعلقة بأهل البيت (عليهم السلام) التي تعرض لها الرجل بالنفي حتى يمكن لنا أن نقول بأن الدنيا لن تتوقف إن نفيت هذه الفكرة، وإنما طالت أفكار الرجل أغلب الموضوعات القرآنية التي تناولت حق أهل البيت (عليهم السلام) إن لم يكن بأجمعها (١)، وسار في تفسيرها

١ - أقول ذلك لأننا اكتشفنا مؤخرًا - فيما لدينا من أجزاء كتابه من وحي القرآن - أنه لم يذر آية تتعلق بحق أهل البيت عليهم السلام إلا وصرفها عنهم، أو أعمل فيها منطوق: (وسعوها تتسع) أي أنه أخرجها من قيدها بخصوص أهل البيت (عليهم السلام) لتشمل غيرهم أيضاً، أو أحال - في الواضحات - إلى كتب الشيعة والسنة لتراجع، دون أن يبدي أي تعليق على طبيعة الفهم الشيعي جاعلاً الفهم السني والشيعي في عرض واحد، أو أنه أهمل موضوع علاقة الآية بأهل البيت (عليهم السلام) بشكل مطلق، وهذه الأمور لا تحصل اعتباطاً، أو بشكل غير مقصود، وإنما يحركها منهج للتعامل معها، ولربما لو خرج كتابه بأجمعه لرأينا أنه قد فعل ذلك مع جميع هذه الآيات.

مسار تفاسير أهل العامة، وفي بعضها لم يذكر - حتى
لمجرد الذكر - رأي أهل البيت (عليهم السلام) رغم أنه عرض
لأفكار أهل العامة بصورة مسهبة، وبإمكان المرء أن يطل
- مثلا - ولو ببساطة إلى آرائه في خصوص الآيات
القرآنية التالية: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي
الأمر منكم) (١)، وكذا قوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما
جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم
وأ أنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على
الكاذبين) (٢) وكذا قوله جل وعلا: (ويقول الذين
كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن

١ - النساء: ٥٩.

٢ - آل عمران: ٦١.

عنده علم الكتاب) (١)، وكذا قوله تعالى: (و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (٢)، وكذا الآية المباركة: (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) (٣) وكذا في الآية الكريمة: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) (٤) وكذا قوله تبارك وتعالى: (وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون* وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين* ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) (٥)، وكذا في قوله تبارك وتعالى: (أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (٦)، وكذا قوله جل من قائل: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله

-
- ١ - الرعد: ٤٣.
 - ٢ - البقرة: ١٤٣.
 - ٣ - هود: ١٧.
 - ٤ - البقرة: ١٢٤.
 - ٥ - الأعراف: ٤٦ - ٤٨.
 - ٦ - الأعراف: ١٥٩.

والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا
الألباب) (١).

هذا ناهيك عن أقواله في الإمامة (٢) ومفرداتها
المتعلقة بالعصمة (٣) والشفاعة (٤) والبداء و (٥) علم الإمام
وسهو المعصوم (عليه السلام)، وعصمة الزهراء عليها السلام (٦)
والتشكيك بحديث الغدير (٧) وحديث الكساء (٨) وحديث
من مات ولم يعرف إمام زمانه (٩)، وأقواله في شأن
الصورة المزرية التي يقدمها عن الأنبياء (عليهم السلام) (١٠)، فترى

-
- ١ - آل عمران: ٧.
 - ٢ - أنظر مقال: الأضالة والتحديد المنشور في مجلة المنهاج
البيروتية / العدد الثاني.
 - ٣ - أنظر فقه الحياة: ٢٦٧ - ٢٧٤، ومقال مع الشيخ المفيد في
تصحيح الاعتقاد المنشور في العدد التاسع من مجلة الفكر
الجديدة الصادرة في لندن.
 - ٤ - من وحي القرآن ٢٥: ٦٦ - ٦٧.
 - ٥ - مقال مع الشيخ المفيد.
 - ٦ - تأملات إسلامية حول المرأة: ٨ - ٩.
 - ٧ - الندوة ١: ٤٢٢، وكتاب للإنسان والحياة: ٢٥٧.
 - ٨ - مجلة الموسم: العدد ٢١ ٢٢ - ٢٢ ص ٣١٤ - ٣١٥.
 - ٩ - من شريط مسجل بصوته نحفظ به.
 - ١٠ - تنتشر هذه الأقوال ومثيلتها على رقعة واسعة من كتبه: من
وحي القرآن، والحوار في القرآن، وحركة النبوة في مواجهة
الانحراف، ودنيا الشباب والندوة، وفي العديد من الأشرطة
الصوتية التي نحفظ ببعضها فراجع المواضيع المتعلقة بما
يسميه أهل التفسير والكلام بهفوات الأنبياء.

فيها كيف أن آدم عليه السلام كان ساذجا، وأن نوحا (عليه السلام) عاش لحظة ضعف الأبوة في قبال مهمات النبوة، فتعرض لكلام إلهي يقطر بالتوبيخ والتأنيب لأن صورة الأمر الإلهي له لم تكن واضحة لديه، وأن إبراهيم (عليه السلام) الساذج الذي يربط بين الأشياء من خلال الإحساس المادي، في طفولية كبيرة، والذي كان يعيش الوهم الكبير فيخشع خشوع العابد، وفي لهفة المسحور للكوكب حينما يراه، ولكنه تهتز قناعاته حينما يأفل هذا الكوكب، ويتصوف للقمر حينما يلوح له فيعيش معه حالة روحية من التصوف والعبادة لهذا الرب النوراني، حتى إذا ما أفل بشروق الشمس تراه يهتز ويتحرك باتجاه الرب الجديد في قوة وامتداد وحيوية دافقة، وإذا بنبي التوحيد الكبير يقتنص إحساسه بوجود الرب من خلال هذه التجربة التي عاشها وعانى منها ثم تمرد عليها!!.

وها هو يوسف (عليه السلام) تراه يهتم بامرأة العزيز جنسيا فيتحرك إليها - بعد أن حركت فيه قابلية الاندفاع - لا شعوريا فيما يتحرك فيه الإنسان غريزيا بطريقة عفوية من

دون تفكير!! وها هو موسى وهارون (عليهما السلام) يخطئان في تقدير المواقف لأن الرسالة لا تتنافى مع بعض نقاط الضعف البشري في الخطأ في تقدير الأمور، وهو الخطأ الذي يجعلهما يتخذان مواقف متناقضة فيما بينهما، وها هو موسى (عليه السلام) الذي يطلب من الله أن يريه ذاته المقدسة، لأنه لم يكن يعتقد أن الله لا يرى، وهو تخيل بأن من يسمع كلام الله يستحق أن يراه، أو يمكن له أن يطلب رؤيته، لأنه لم يكن يمتلك التصور التفصيلي للذات الإلهية، عندئذ فليس هناك مانع من إرادة النظر بالمعنى الحسي فيما طلبه موسى (عليه السلام)، لأن الله لم يكن قد عرف موسى (عليه السلام) إلى ذلك الوقت أنه لا يرى. وما إن ترك موسى (عليه السلام) حتى يأتيك الكلام عن يونس (عليه السلام) الذي لم يكن يمتلك الصبر فخرج مغاضبا احتجاجا على عدم استجابة دعائه من دون أن يتلقى أية تعليمات من الله، فيعده ضمنا متهربا من مسؤولياته، ومقصرا فيها، ثم تجبهك الصورة المقدمة عن داود (عليه السلام) فلم يشفع له قول الله بأنه قد آتاه الحكمة وفصل الخطاب أن يكون مستسلما لمشاعره العاطفية بالحكم، فيخطأ في إصدار الحكم ضد الإنسان الفقير، ولكن ذلك الخطأ لم يؤد إلى نتيجة سلبية كبيرة في الحياة العامة، لأن الخطأ كان في طريقة إجراء الحكم، فلا بد إذن من

الاعتراف بأن مثل هذه الأخطاء! لا تتنافى مع مقام النبوة،
لا سيما إذا كانت الأمور جارية في بداياتها مما قد يراد به
الوقوع في الخطأ.

وسرعان ما ترضحك الصورة المقدمة عن سليمان
(عليه السلام) الذي شغله حبه للخيل عن ذكر الله، فانشغل بها
عن صلاته ففاته صلاة العصر، ومعه يتكرر حديثه عن
الضعف الإنساني لدى سليمان (عليه السلام)، الذي يتعد عن
خط القرب السلوكي من الله قليلا، ثم تراه يعمد كي يربي
نفسه ويوبخها إلى محاولته ذبح الخيل - وهي خيل
الجهاد - وقتلها.. وإلى آخر ما في جعبته في هذا المجال
مما لم ينزل الله به سلطان علم، أو إثارة من نظر.
وأشد الصور إيلا ما نجده في الصورة السيئة التي
يقدمها لنا عن النبي (ص)، وأهل بيته (صلوات الله عليهم)،
فالنبي (ص) المبعوث رحمة للعالمين، وكونه كان على
خلق عظيم، غير أن ذلك كله لم يشفع له، فبات لدى
فكر هذا الرجل هو من عبس المشار إليه في آية: (عبس
وتولى) (١) وما يتعلق بشخصيته فهو (ص) يقوم بعمل لا
موضوع له، ويفوت الفرص عليه، ولا يعرف التمييز بين
المهم والأهم، ويخطئ في التشخيص فيريبه الله

١ - عبس: ١.

بالتدرّيج، وهو في الأخير لا يعرف الأهم في مصلحة الرسالة (١)، وهو يشكو فراغ وجوع الحنان الذي تسبب به موت أمه فعوضته الزهراء (عليها السلام) (٢)، وشخصيته فيها عناوين الشك، ولا تجربة ثقافية له قبل النبوة (٣) بل يمكن أن تفهم منه أن قد يقول بأن وعي الصحابة في بعض المواضع كما هو في الحديدية كان متقدما على رسول الله الذي اعترضوا عليه (٤)، والصورة الفاحشة التي يقدمها عن أمير المؤمنين (عليه السلام) فهو مقترف الذنوب وصاحب القلب المكتسب للآثام، وهو الذي يعد ربه بأنه سوف يتراجع عن خطئه وإساءته ومعصيته بل هو الذي يقترف الذنوب الكبيرة التي يكفي ذنب واحد منها لينقصم

١ - أنظر جميع هذه الأقوال في من وحي القرآن ٢٤ : ٦١ فما بعدها.

٢ - أنظر الندوة ١ : ٥٨، ونشرة بينات في عددها: الخامس والثلاثين بتاريخ ٣٠ / ٥ / ١٩٩٧.

٣ - أنظر أسئلة وردود من القلب: ٦٣ حوار مع وضاح الحلو وإسماعيل الفقيه.

٤ - يعتبر في كتابه للإنسان والحياة ص ٣١٨ أن اعتراض الصحابة على النبي كان يمثل حالة وعي!!، فإذا كانت هذه الحالة وعي، فمن أعترض عليه يقف في قبالة هذا الوعي، فلا تغفل.

الظهر، وهو صاحب الغريزة التي تتغلب على عقله فتوقعه في المعصية (١)، والصورة المأساوية التي يقدمها عن الزهراء (عليها السلام) فهي امرأة عادية، لا خصوصيات لها، ولم يتدخل الغيب في نموها الروحي، ولنجرّب أن نخلق منها مئة فاطمة، ولم تظلم، ولم يسقط لها جنين بمسمار، ولم يعتد عليها في بيت، ولم يحرق بابها، ولم تضرب، وكانت تتعامل بشكل طبيعي مع أبي بكر وعمر، بل كانت قلوبهم مملوءة بحبها فعلاّم يهاجمونها، ولم تحظ بكرامة التبوية (٢)، وها هو الإمام الحسين (عليه السلام) يخرج لطلب الحكم والسلطان كما خرج أبوه من قبل (٣). وهكذا عشرات القضايا المتعلقة بطبيعة العقيدة أو شخصياتها.

أما في الوجدانيات والأمور التي تعبر عن محاولات تجسيد علاقات الولاء مع أهل البيت (عليهم السلام) فقد رام هدم

-
- ١ - أنظر في رحاب دعاء كميل: ٩٤، و ١٥٩، و ١٦٩، و ٢٧٦.
 - ٢ - هذه الأقوال وغيرها موجودة لدينا بشريط نحتفظ به، ويمكن مراجعة نصوصها في كتاب الحجة الجليل السيد جعفر مرتضى العاملي (نصره الله) مأساة الزهراء (عليها السلام) شبهات وردود ناقلا إياها عن لسان البعض.
 - ٣ - من شريط نحتفظ به.

كل شيء، وحاول سن فهم يحاول أن يفصل بين ذات المعصوم (صلوات الله عليه) وبين رسالته، في مهمة يحاول فيها أن يفرغ الذات من محتواها الذي بموجبه حازت الموقع الذي حظيت به (١)، دون أن ينسى أن يسفه الأفكار التفضيلية التي تفضل شخصية على أخرى (٢)، ومن بعد ذلك تراه يسفه الزيارات (٣) التي يدعو إلى تغييرها لأنها تتنافى مع حاجة المرحلة المعاصرة، وينتقد طريقة التعامل مع الأضرحة المقدسة معتبرا إياها قطعا من الحديد لا فائدة منها، بل إنها قد تثير صنمية لا شعورية ثم يتمادى إلى القول بأن تعليق صورة الإمام

١ - للتمثيل لا على الحصر أنظر: الندوة ١: ٣١٢ - ٣١٣، وحوارات في الفكر والسياسة والاجتماع: ٥٢٧، والحوار في القرآن: ١١٠، تأملات في آفاق الإمام موسى الكاظم: ١٢، ومجلة الموسم: ٣٠٩ - ٣١٠، وعشرات المواقع الأخرى.

٢ - من وحي القرآن ٥: ١٤، والموسم: ٣٠٣.
٣ - الزيارات والأدعية التي كذب بها أو انتقدها كلا أو جزءا، كثيرة منها: زيارة عاشوراء، زيارة الأربعين، الزيارة الجامعة، زيارة الناحية، دعاء التوسل، دعاء الندبة، دعاء الفرج..

٤ - أنظر تأملات في آفاق الإمام موسى الكاظم: ١١.
٥ - مجلة الموسم العدد ٢١ - ٢٢: ٢٩٩، و ٧٤.

علي (عليه السلام) أو الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه) أو صورة بعض الشخصيات هي الأخرى تثير مثل هذا الشعور (١) بزعمه (٢) وحتى يكمل الأمر راح يشوه صورة الشعائر الحسينية فها هم شيعة العراق يحتفلون في يوم عاشوراء بشرب الخمر حزنا على الحسين (عليه السلام) (٣) وأولئك شيعة إيران ينبحون نبح الكلاب في مشهد حزنا على الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء ليشير من بعد ذلك إلى إمكانية أن يخرج غدا من ينهق نهق الحمير بكاء على الحسين (عليه السلام) (٤) وموقفه الساخر من مراسم الحسين كاللطم وتسفيه الشعر الحسيني الذي يرى أن أكثر من تسعين بالمائة منه ينبغي أن يتبدل (٦) وما إلى ذلك من مئات القضايا التي لا يسع المجال لاستعراضها وإن على

- ١ - الطريف أن عقيب انتشار مجلة المعارج هذه عمد إلى طباعة صورته بعشرات الآلاف من النسخ، فصورة الإمام الخميني (قدس الله نفسه الزكية) تثير شعور الصنمية أما صورته فلا!! ولربك في خلقه شؤون!!.
- ٢ - مجلة المعارج العدد ٢٨ - ٣١ فصل: فضل الله ووعي السيرة النبوية: ٦٢٤ - ٦٢٥.
- ٣ - جريدة منبر السبت العدد الأول، ورؤى ومواقف ١: ١٣٨.
- ٤ - من شريط نحتفظ به بصوته.
- ٤١ - من شريط نحتفظ به بصوته.

نحو الاختصار كما فعلنا هنا.
أما في الفقه - رغم عدم فقاهته (١) - فحدث ولا

١ - من الناحية الموضوعية فإن ميزان الفقاهة لدى الإمامية (أعلى الله شأنهم) ميزان دقيق لا يتسامحون فيه، ويقوم إما على شهادة خبير كشهادة الأستاذ لتلميذه، أو شهادة مالكي الخبرة العلمية للمعني من خلال البحث والامتحان وما إلى ذلك، وإما على ما تفيد أبحاثه العلمية فيشهد لها أهل الخبرة من حيث المتانة والدقة في التفاعل مع أدلة الأحكام وما يشبهها، وكلا الأمرين يكذبان الرجل، فلا هو ما حاز على أي شهادة تثبت ذلك، بل على العكس كل الشهادات المراجع الأعلام تقف على خلاف ذلك حيث لا يجوزون العمل بفتاواه، وآخر هذه الشهادات شهادة آية الله العظمى المرجع الديني الكبير السيد علي السيستاني - علي ما أصدره مكتبه في قم المقدسة - بعد شهادات الآيات العظام والمراجع الكبار الشيخ الوحيد الخراساني والشيخ الميرزا جواد التبريزي النجفي والسيد محمد سعيد الحكيم والشيخ الميرزا علي الغروي والشيخ محمد تقي بهجت والشيخ بشير النجفي الباكستاني والسيد محمد الصدر والسيد مهدي المرعشي النجفي والسيد الشاهرودي النجفي والسيد علي البهشتي وغيرهم ممن لا يسع المجال لاستعراضهم. ولا هو من حاز على شهادة خبير واحد ممن يصح عليه مفهوم أهل الخبرة، ومن شهد له في القائمة التي أصدرها مكتبه مرارا لا يصدق عليهم هذا الوصف بأي شكل من الأشكال فهم إما من لا عهد له بفقته فضلا عن خبرته، وإما حزيون مقدوحة شهادتهم أصلا، يجرون النار إلى قراصهم، وإما لا معرفة لهم بعقائده وحاضره، فحملوا الأمر على صورة تأريخه الظاهر دون دراية بما طرحه من عقائد وفقه وأفكار وما يتعلق بكل توجهاته العقائدية التي بأن بعضها مؤخرًا!.

وأما أبحاثه الفقهية، فأنا أقول بضرر قاطع أن الكثير من العلماء كانوا قبل هذه الأبحاث يظنون أن له نصيب من الفضل في هذا المجال، ولكن هذا الظن سرعان ما رحل ليحل اليقين بدلا عنه بما عبر عنه أحدهم بأن أبحاثه المنشورة وفتاواه تصلح أن تسمى بالكارثة الفقهية أكثر من تسميتها بأي شيء آخر، وقد فصلنا هذا الأمر في بحثنا: (الفقه الإباضي: إباحة فقه أم استباحة دين) نأمل أن يرى النور عما قريب.

وإنما قلت في بدء هذا الكلام: من الناحية الموضوعية لكي أخرج ضابطة الإيمان والعدالة وما إليها من شرائط الفقاهة،

وفيها من الحديث ما يفجع القلب!.

خرج، فلعمر الحق قد ذهب بها عريضة، وفر من فقه الإمام
الصادق (عليه السلام)، أكثر من فرار عثمان بن عفان في
معركة أحد (١).

١ - فرار عثمان من معركة أحد، أحد مصاديق هذا المثل: (ذهب
بها عريضة) على لسان المؤرخين حيث كان قد بلغ في فراره
من المعركة أنه وصل إلى بيته في المدينة واختبأ فيه!!

ويكفيه أن يكون قد عمد إلى إعمال منهج في استنباط الأحكام والمسائل يبرأ منه مذهب أهل البيت (عليهم السلام) بشكل حازم وحاسم، وأعني بذلك إعماله القياس والاستحسانات العقلية والمصالح المرسلة على مساحة واسعة النطاق مما يسمى بفقهاء وأبحاثه في هذا الخصوص، وها هي أبحاثه المسماة بالفقهية خصبة جدا في طبيعة الاستدلالات القائمة على الاستحسانات العقلية والمصالح المرسلة التي يغلفها تارة باسم سيرة العقلاء وبناء العقلاء والارتكازات العقلية أو الإيحاءات أو ما إلى ذلك (١)، أما القياس فلم يكتف بتضمينه في داخل فتاويه، بل دعا إليه صراحة (٢). ولربما تمثل دعوته إلى متابعة منهج الألسنية الحديثة (٣)، في تعاملها مع النص واحدة من أخطر دعواته

١ - أنظر مقالة: المنهج الاستدلالي عند محمد حسين فضل الله المنشور في مجلة المرشد العدد ٣ - ٤ في الصفحات ٢٤٤ - ٢٤٥.

٢ - أنظر في ذلك تأملات في أفق الإمام موسى الكاظم: ٤٣، وكذا أنظر: الاجتهاد وإمكانيات التجديد في منهج التفكير المنشور في العدد: ١١١ من مجلة المنطلق: ٧٧ - ٧٩.

٣ - متأثرا بذلك علي ما يبدو أو مشتركا بالفهم مع كتابات المصري نصر حامد أبو زيد سيما إشكاليات القراءة وآليات التأويل، وكذا النص السلطة الحقيقية، والليبي الصادق النيهوم في كتابه إسلام بلا إسلام، وكذا السوري محمد شحرور في كتبه الثلاثة لا سيما الكتاب والقرآن قراءة معصرة ويلوح لي تأثيره أيضا بكتابات اللبناني علي حرب في هذا المجال، والله العالم.

لأنها لا تبقى فقها ولا معتقدا، إذ يدعو لتعويم النص إلى الدرجة التي لا يبقى له معنى بحيث يشرف على اللا تناهي في الدلالة واللا محدود في المعنى، فهو يرى ضرورة إخراج المفردة اللغوية في النص من إطارها التاريخي إلى أن تكون متحركة عبر الزمن، وثانيا إلى الفصل بين النص وبين محرره، وفصل التجربة الشخصية للإنسان المتكلم بها، لأن معناها يمثل عالما ثقافيا في حجم حركته في التاريخ وفي الكون كله، مما قد يختلف الناس في وعيه في مختلف أبعاده وتنوع آفاهه (١)، وخطورة هذا المنهج تتبع أساسا من طريقة فهم النص، وعدم تعليقه على مراد الناص، وإنما إطلاق الفهم ليشمل كل ما يمكن أن تشير

١ - أنظر النص والتأويل وآفاق حركة الاجتهاد المنشور في مجلة المعارج ٢٨ - ٣١ ص ٢٥٩ وانظر مقالة وجيه قانصوه: جدلية النص والواقع المنشورة في فضل فضل الله وآمال المرجعية المؤسسة في نفس العدد ص ١١٩ - ١٢٠.

إليه مفردات النص، بحيث إن المفردة اللغوية لو كانت في عهد النص تدل على المعنى الفلاني، ثم اختلفت حركة الدلالة مع الزمن لتشير إلى شيء آخر، فما من ضمير من العمل بالدلالة المتأخرة عن عهد النص، واعتمادها ككاشفة عن فهم النص، وهذا ما يؤدي عمليا إلى إمكانية التلاعب بالنصوص بالطريقة المناسبة، وإغفال عنصر الظهور اللازم لفهم المراد من النص، ولو جمع هذا الأمر مع منهجه في العمل بالاستحسانات العقلية المعبر عنه في حديثه كثيرا حينما يتعامل مع النصوص، بعبارات من قبيل إنني لا أتفاعل، أو إنني لا أتصور وأمثال ذلك، عندئذ فإن الأساس الذي يقوم عليه التشريع والتنظير الإسلامي سيكون من الهشاشة بمكان بحيث إنه سيغدو ألعوبة بيد من يريد أن يتعامل معه، وللحديث عرضا ونقدا تفصيل لعلنا نتوفر عليه في أبحاث أخرى.

* * *

إن هذا القضايا ومئات غيرها لا تعبر عن حالة نقاش في داخل الفكر، بل هي حالة مخالفة من خارجه، ولهذا فإن الرد على هذه الأفكار - ومنها موقفه من الولاية التكوينية - إنما هو محاولة كشف المنهج الذي سارت وفق معالمه عملية الضلال، فأودت إلى أن هذا

الرجل حينما يفكر بكلام الإمام (عليه السلام) فإنه لا يحمله على العصمة، إنما يحاول أن يأخذه كغيره من كلام البشر، لأنه يعتقد بأن جميع الفكر الإسلامي ما عدا الحقائق الإسلامية البديهية (١) إنما هو من كلام البشر كما أشار هو في كتابه (حوارات في الفكر والسياسة والاجتماع) حيث قال: إن الفكر الإسلامي - ما عدا الحقائق الإسلامية البديهية - هو فكر بشري، وليس فكراً إلهياً، قد يخطئ فيه البشر فيما يفهمونه من كلام الله وكلام رسول الله (٢) (ص) وقد يصيبون. (٣)

- ١ - وهي الحقائق التي وصفها في مقالة الأصالة والتجديد [مجلة المنهاج: العدد الثاني] بأنها ما تسالم عليها جميع المسلمين بحيث لا تقبل المناقشة ثم عدد مصاديق ذلك ليشمل أصول الدين لدى العامة وفروعه، على عكس تلك الأمور التي لم ترق إلى درجة الحقيقة باعتبار أنها ما زالت خاضعة للنقاش سلبي وإيجاباً، وذكر الأمور الخاصة بعقائد الإمامية وفروع الدين لديهم، معتبراً أن الصنف الأول هو المقدس وما سواه بأنه غير مقدس، دون أن ينسى تقديم نصيحته لنا بعدم تضليل وتكفير من لا يؤمن بمقدساتنا!
- ٢ - يلحظ اختصاص الحديث بكلام الله ورسوله (ص) دون الأئمة (عليهم السلام).
- ٣ - حوارات في الفكر والسياسة والاجتماع: ٤٨٠ الطبعة الأولى بيروت - دار الملاك.

ورابعها: إن كانت هذه الأفكار لا تمثل أهمية في البنية العقائدية، ولا تنطوي على تلك الجدية في شؤون هذه البنية، فالتساؤل هنا سيكون مرة عن جدوى طرح هذه الأفكار، في وقت يتم فيه إهمال المواضيع ذات الأهمية الكبرى للتحرّك الإسلامي العالمي والمشاكل التي تعترض مفاعيل تحرك الصحوة الإسلامية، ومئات الموضوعات التي لا زالت مبهمة في الفكر الوضعي عن أمور الإسلام ومفاهيمه (١)، ويفترض بمن يلحظ في

١ - وهو نفس الأمر الذي أشار إليه الحجة الشيخ جعفر السبحاني في رسالته للرجل المؤرخة في ٢٠ / شعبان المعظم / ١٤١٧ هـ وذلك في معرض إدانته المهدبة لمنهج في نبش الكثير من الأفكار المتسالم عليها عند الطائفة مقترحا عليه أن يبحث في العديد من المسائل المهمة التي تشغل بال المفكر الإسلامي. (أنظر نص الرسالة في كتاب: الحوزة العلمية تدين الانحراف: ١٣٨).

وقد أجاب على رسالته بالكثير من ادعاء التنكر لهذا المنهج وأنه يسير بالفعل باتجاه معالجة المشاكل التي يشير إليها الشيخ السبحاني، ولكن إطلالة صغيرة على المجموعة الفكرية الضخمة التي شكلت تصوراته العقيدية والوجدانية والمسلكية عن المذهب وخاصة المنهجية منها، والتي يخالف فيها المذهب جملة وتفصيلا، ومقارنتها بقراءة متأنية وواعية لما أضافه إلى عالم الفكر، لوجد أن جعبته في الأولى ملأى، وكأنها هي الشغل الشاغل له، فيما تجد أن جعبته في الثانية حاوية على عروشها، اللهم إلا من بعض الشعارات التي أطلقها هنا وهناك، دون أن تشكل أي مضمون في حقل المعالجات الجادة، بل حتى في عالم الإثارات الفكرية، ولعل إطلالة صغيرة على كتاب: خلفيات كتاب مأساة الزهراء (عليها السلام) وسائر الكتب التي عالجت أفكاره تكشف لنا أي لغة تجديدية يحملها الرجل، وهل أنه كان حائرا في الجديد، أم أنه كان مولعا بالقديم من أجل طرح ما هو أقدم منه، وأكثر حيرة!!.

الرجل لياقات ريادية على مستوى العالم الإسلامي أن
يسأله عما بدا له فغدا منكفئا على أغلب الموضوعات
العقائدية والوجدانية والمسلكية القديمة، لينبش الكثير من
الأمور التي تسالمت عليها الأمة، دون أن نلمس أي أثر
لهذه المسائل التي تؤرق السائرين على درب تفعيل
الصحة الإسلامية وتقديم المشروع الإسلامي بالصورة
التي تليق بشأنية الإسلام.

ويا ليت أن أمر نبش القديم اقترن بقوة دليل أو
بحجة بليغة، فلسنا من أتباع القديم لأنه قديم، ولسنا كما
يدعي: بأننا في بعض أوضاعنا: (إنا وجدنا آباءنا على
أمة وإنا على آثارهم مقتدون)، ولسنا كما يدعي بأنه لا
توجد في مذهبنا أية حرية لمناقشة قضاياها، ولسنا كما

يزعم بأن لدينا: (إرهابا فكريا) (١)، ولكننا أصحاب دين، وهذا الدين نشأ بعيدا عنا زمنيا، وما هو مطلوب منا أبدا: أن نلتزم بهذا الدين كما جاء به رسول الله (ص) وفصله الأئمة (عليهم السلام)، ولهذا من يريد أن يبلغنا بأننا لم نفهم ديننا وأنا مع تقادم الزمان سرنا بعيدا عنه، إن من واجبنا الإصغاء ريثما نسمع البنية الدليلية التي يقدمها من أجل تعزيز فكرته هذه، فإن كانت حجيتها بليغة، فمن واجبنا تصحيح ما لبس علينا من فهم الدين، فلسنا ندعي العصمة، أما أن يأتيك من يحدثك بجملة من التشكيكات كيفما اتفق اعتمادا على بعض الحثيات الساذجة في فهم الأمور، رغبة منه في التغيير والتجديد، ومخالفا في ذلك فكر الأئمة (عليهم السلام) وإجماعيات تفسيرات الآلاف من العلماء عبر كل هذا الزمن، فعند ذلك لن ينتظر من علماء الأمة بعد نصحه وإرشاده من أن يسموه بسمة الانحراف والضلال - إن لم يرتدع - كائنا من كان هذا الرجل، فتلكم جماعات الخوارج قاتلت مع أمير المؤمنين (عليه السلام) حربيه في الجمل وصفين، ولكن ذلك لم يمنع من أن تعد خارجة عن العقيدة والدين بسبب انحراف موقفها

١ - هذه الأقوال بمجموعها وردت في كتابه للإنسان والحياة:
١٩٥.

العقائدي، فنحن لا نملك بطاقة شخصية تمنح مع الولادة في الانتساب إلى عقيدتنا، وإنما هويتنا بعقيدتنا فمن شد عن هذه العقيدة خلع عن نفسه صفة الانتساب إليها. أما إن لم تكن - هذه الأفكار - بذي قيمة، فعلام طرحها في هذا الوقت بالذات، والأمة تعيش حالة مريرة من هجمة كافة قوى الاستكبار العالمي عليها، وتحتاج إلى أن توظف كل طاقاتها في عملية المواجهة هذه، ومعلوم أن محض طرح أفكار من هذا القبيل سوف يؤدي بطبيعة الحال إلى أن يتصدى العلماء لتوضيح ما سيلتبس على فكر الأمة، وهو الأمر الذي سيؤدي بالنتيجة إلى أن تنشغل بعض من الطاقات بعيدا عن المعركة الحقيقية، وهذا الانشغال سوف يزداد كما ونوعا كلما اتسعت رقعة المناقشة طولا وعرضا - إن صح التعبير - وهو الأمر الذي حصل بالفعل، فبعيدا عن جدوى طرح هذه الأفكار، فضلا عن مدى قيمتها العلمية، يمكننا التأكد الآن - أكثر من أي وقت مضى - عن مدى اتساع رقعة المشاغلة السياسية والفكرية والوجدانية - الاجتماعية التي أحدثها فكر هذا الرجل للغالبية العظمى من رجالات المذهب (١)، وهذه - بما لا ريب فيه - من أجل

١ - لا ينبغي الظن بأن الفكر كان من العظمة بحيث أنه استقطب كل هذا الحشد الذي نتحدث عنه، فلا شيء من ذلك بالمرّة، وإنما بسبب كون هذا الرجل ينطق بالأفكار المغايرة لعقيدة أهل البيت بعنوانها عقيدتهم عليهم السلام، مستعينا بزيه وبسمعته التاريخية الظاهرية، ويستخدم لذلك الطاقات المغرر بها من المؤمنين الذين لم يمكنهم وعيهم من إدراك حقيقة أفكار الرجل وطبيعة ما أوغل به بعيدا عن مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

الخدمات التي يمكن أن ينالها الاستكبار العالمي،
فمقارعة الاستكبار لن تكون بتصريح يصدر من هنا أو
هناك، فيما تكون الممارسة السياسية أو الفكرية أو
الاجتماعية تعمل على اضطراب الصف المقاوم
للاستكبار، ولو كان الأمر كذلك فمن غير شك سيغدو
طاغية العراق صدام حسين من أشد المقارعين للاستكبار
وقواه الإقليمية والعالمية، في الوقت الذي لم يبق من
يشك بأن هذا الطاغية رغم كل تصريحاته المعادية لأمريكا
والكيان الصهيوني فإنه قام بتقديم خدمات لم تكن تحلم
بها كل قوى الطغيان في المنطقة!!
هذا وقد ساق البعض هذه الشبهة وهي أن الرجل
حتى لو لم يؤمن بالولاية التكوينية، فليس من المفروض

أن يعارض بهذه الصورة، ويضيف هذا البعض هب أنه لم يؤمن بظلامه الزهراء (عليها السلام) فهل يستحق ما آل إليه الأمر حينما أعلنت المرجعية الدينية العليا في قم المقدسة رسمياً، وكذا ما أعلن عنه العديد من مراجع النجف أو تحدثوا عنه بشكل غير رسمي بكونه منحرفاً وخارجاً عن المذهب؟ ومن بعدهم المئات من العلماء الأعلام معتبرين أن هذه الأمور هي من جملة المناطق التي يمكن للعلماء أن يختلفوا فيها، وبالتالي فإنه لا يستحق كل هذا الوصف.

وللجواب عن ذلك نقول: تارة إما أن تكون هذه المعارضة - كما يعبر هو تكراراً ومراراً - نتيجة عوامل نفسية كالعقد والأحقاد والحسد وما إلى ذلك، أو عوامل سياسية أو قومية كصراع الفرس مع العرب حول شؤون المرجعية، أو أن ضحية هجوم التيار الرجعي في الحوزة العلمية، أو أنه ضحية الذين يأخذون كلماته على طريقة (ويل للمصلين) فيقطعون كلماته ويصلون قطع متناثرة منها كي تبدو صياغاتها صياغة انحراف، أو أن ضحية المؤامرات المتكررة لأمريكا والموساد ومفاعيل قمة شرم الشيخ وأمثال ذلك وهذه كلها قد دفعت بمعارضيه أن يشنوا هجومهم عليه كي يسلبوه ما هو فيه من جاه ومال

وما شاكل. (١)
فالملاحظ عليها أولاً: أن الواقع خلاف ذلك
تماماً، والتأمل في هذه اللغة الاتهامية يظهر خلفيتها
السياسية والتضليلية التي تحاول أن تعمي على حقيقة
الأمر، فصف المعارضة لأفكار هذا المتهم - وهو صف
الأغلبية العظمى للأمة - تختلط فيه التيارات السياسية
الإسلامية جميعاً، فالخط الثوري والتغييري بل حتى أشد
الناس في هذا الاتجاه، والخط المحافظ والتقليدي بل
حتى الذي ألف عنه عدم تدخله في الشؤون العامة
ومنهجه أقرب إلى الاعتزال منه إلى شئ آخر يشترك في
مصاف واحد في شأن هذه المعارضة، والمرجعيات
الدينية الإيرانية والعربية على حد سواء من هذا الأمر،
وبالتبع لها الحوزات العلمية بالعربية والفارسية
والباكستانية وغيرها سواسية في هذا الشأن، ولا يعقل أن
تشترك كل هذه القطاعات بأمر واحد وتتفق على قول
واحد.

ومن الطبيعي إن تعرض البعض لنقض فكرة واحدة
أو اثنتين أو حتى عشرة من تلكم التي لا تستلزم هدم

١ - في تكذيب هذه الاتهامات الرخيصة وردّها يراجع العدد
الثاني والثالث من نشرة بينات الهدى.

الأركان الأساسية للمذهب، لن يفعل معارضة بهذا المستوى، بحيث نرى أن كل الألوان حتى تلك التي لم تجتمع في يوم ما، اجتمعت ها هنا، فإن ذلك قد يعبر عن مستوى الخطر الذي يتهدد المذهب نتيجة طروحات هذا الرجل، بحيث يصل الأمر ولربما لأول مرة في تأريخ المذهب في عصر الغيبة أن تتصدى المرجعية الدينية العليا لتعلن خروج رجل من المذهب وتعلن عن انحرافه عنه. (١)

وهذا الأمر يقودنا إلى المفردة الثانية من هذه المناقشة وهي أن تسفيه هذا الرجل للمفردات العقائدية الكبيرة منها والصغيرة ليست من القلة بحيث يمكن أن ينظر إليها ضمن معايير اختلاف الرأي، أو أن نقول عنها هفوات يمكن أن يشط عنها الفكر أو القلم، ولا هي بالمسائل التي تدخل ضمن الحيز الذي لا يصل إلى الخطوط الاعتقادية الحمراء، بل لقد تجاوز الكثير من هذه الخطوط فيما أعلن عنه لحد الآن، مما ينحو بنا إلى القول بأن مجموع عقائده المعلنة تشكل خطأ مخالفا لخط العقيدة المحقة وأساسيات الإسلام، ولا يسع المجال هنا

١ - أنظر نصوص الفتاوى في كتاب الحوزة العلمية تدين الانحراف: ١٤٦ - ١٤٩

لذكر ذلك، والمرجع فيها إلى الكتب المختصة والنشرات التي صدرت في هذا المجال، لا سيما كتاب خلفيات كتاب مأساة الزهراء للعلامة الحجة السيد جعفر مرتضى العاملي (أيده الله بتأييده).

ومحض القول بأن هذا الرجل له فكر المذهب ولكنه يجتهد مثله مثل غيره من المجتهدين لا ينفع في درء التهمة عن لسبيين:

أولهما: أن المسائل الاعتقادية ليست بمسائل اجتهادية لنختار منها ما نشاء ونأخذ ما نشاء، وإنما هي كالبنية الهندسية التي تشكل مجموع أساس أي بناء، ومن الواضح أن أي خلل - حتى لو تبدى بحجم عشر الملميت - يمكن أن يلصق بهذه البنية، لا بد وأن يبدو بحجم الأمتار مع اتساع البناء، فكيف الأمر مع منظومة عقائدية يراد لها أن تستمر ما دامت السماوات والأرض، وأنها تجرعت ولا زالت تتجرع ألوانا من العنت العقائدي والعنف الفكري بما لا يمكن لأحد أن يقول بأنه جرى على غيرها من العقائد عبر تاريخ العقائد والأديان، هذا ناهيك عن القمع الاجتماعي والسياسي والأمني وما إلى ذلك.

وإنما هي مجموعة من الأفكار والمفاهيم - في

خطوطها الأساسية - وضعها مؤسس العقيدة (ص) وآله
الطاهرين (عليهم السلام)، وقام العلماء الأعلام ووجوه الصحابة
وتحت إشراف الأئمة الأطهار (عليهم السلام) منذ البداية (١) بعرض

١ - كسليمان الفارسي والمقداد بن الأسود الكندي وأبي ذر
الغفاري وحذيفة بن اليمان وأبو الهيثم بن التيهان وعمار بن
ياسر ومالك الأشتر وقيس بن سعد بن عبادة وكميل بن زياد
النخعي وعبادة بن ربيعي والأصبغ بن نباتة وعبد الله بن عباس
وهاشم المرقال وميثم التمار ورشيد الهجري وعمرو بن
الحمق وضرار بن ضمرة، وصعصعة بن صوحان، ومالك
الأشتر النخعي والحارث الأعور الهمداني ومحمد بن أبي
بكر وجابر بن عبد الله الأنصاري وعدي بن حاتم الطائي
ومحمد بن الحنفية وأبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني
وحجر بن عدي وسليم بن قيس العامري في عهد الإمام أمير
المؤمنين (عليه السلام)، وقسم من هؤلاء إضافة إلى سليمان بن
صرد الخزاعي ومسلم بن عقيل بن أبي طالب، والعباس بن
علي بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب
وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وإبراهيم بن مالك،
وسليم بن قيس الهلالي، والطرماح بن عدي بن حاتم وأبي
الأسود الدؤلي والمنهال بن عمرو الأسدي، في عهد الإمام
الحسن والحسين (عليهما السلام)، وبعض هؤلاء وأبان بن تغلب وأبي
حمزة الشمالي وثوير بن أبي فاختة والحسين بن علي بن
الحسين بن علي بن أبي طالب، وزيد بن علي بن الحسين،
وزيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وصهيب وابنه
حكيم وحفيده سدير بن حكيم الصيرفي، وسعيد بن جبير
وسعد بن طريف المعروف بالإسكاف، وسلام بن المستنير
وأبي خالد الكابلي ومعروف ابن خربوذ المكي وعمران بن
ميثم التمار، في عهد الإمام زين العابدين عليه السلام، وبعض
هؤلاء وأبي الصباح الكناني وإبراهيم بن عمر اليماني،
وإسماعيل بن جابر الخثعمي وبكير بن أعين، وبريد بن
معاوية العجلي وجابر بن يزيد الجعفي والحسين ابن بنت
أبي حمزة الشمالي وحرمان بن أعين وأخيه زرارة وأخوته
عيسى وعبد الرحمن وعبد الملك وعبد الجبار وحمزة بن
محمد الطيار وخيشمة الجعفي وأبي عبدة الحذاء وصالح بن
عقبة وعبد الله بن بكير وعبد الله بن عجلان وعبد الحميد بن
عواض الطائي وأبي بصير ليث المرادي وعبد الله بن غالب
الأسدي والفضيل بن يسار وكليب بن معاوية الأسدي
والكميت بن زيد الأسدي وعلقمة بن محمد الحضرمي
ومحمد بن مسلم الثقفي ويعقوب بن شعيب بن ميثم وإخوته

وأيوب بن الحر في عهد الإمام الباقر (عليه السلام)، وبعض هؤلاء وغيرهم كإسماعيل بن جعفر بن محمد (عليه السلام) وأخوته إسحاق وعلي وإسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي والسيد الحميري وإسماعيل بن محمد وإسحاق بن عمار الصيرفي وإخوانه يونس ويوسف وقيس وإسماعيل وإسحاق بن شعيب بن ميثم وإسحاق بن عبد الله الأشعري القمي وإسحاق بن عبد العزيز المعروف بأبي السفاتج وأبان بن عثمان وبشير الدهان وبكر ابن محمد الأزدي وثعلبة بن ميمون وجميل بن دراج والحسين بن ثوير ابن فاختة والحسين بن المختار وأخيه الحسن والحسين بن أبي العلاء وحماة بن عيسى الجهنبي وحماة بن عثمان وحفص بن غياث والحارث بن المغيرة النصرى وحديد بن حكيم وإخوته مرزم ومحمد، والحسين والحسن وعبيد ورومي ويحيى أولاد زرارة بن أعين وخالد القلانسي وخالد بن سعيد القماط وداود بن فرقد والربيع بن محمد المسلمي وسليمان بن مهران الأعمش وستان وابنه عبد الله وسماعة بن مهران وسيف بن عميرة النخعي وشعيب بن يعقوب العقرقوفي وشهاب بن عبد ربه وأخيه عبد الخالق وأبيهم عبد ربه بن أبي ميمون وصفوان بن مهران الجمال وضريس بن عبد الملك الشيباني وعبد الله بن أبي يعفور وعبد الله بن الوليد وعبد الله بن بكير وعبد الله بن ميمون القداح وعبد الله بن جندب وعبد الله بن غالب الأسدي الشاعر وعبيد الله بن موسى العبسي وعبد الرحمن بن الحجاج وعبد الرحيم القصير وعبد الصمد بن بشير وعبد الأعلى بن أعين وعلي بن أبي المغيرة والعلاء بن رزين وعقبة بن خالد وعنيسة العابد وعاصم بن حميد والعيص بن القاسم البجلي وعبد الله بن مسكان وعبد الله بن شريك العامري وعبد الرزاق بن همام والفضل بن عبد الملك والفضيل بن عياض الزاهد والفيض بن المختار الجعفي وفطر بن خليفة والقاسم بن بريد العجلي والقاسم بن محمد الجوهري ومحمد بن الحسن بن أبي سارة ومحمد بن سنان ومحمد بن الفضيل بن غزوان، ومحمد بن قيس الأسدي الكوفي ومحمد بن النعمان الأحول المعروف بمؤمن الطاق وموسى بن بكر الواسطي ومالك بن عطية البجلي ومعاوية بن عمار البجلي الدهني ومعاوية بن وهب والمعلّى بن خنيس المدني والمثنى بن القاسم الحضرمي ومنصور بن حازم البجلي ومسعدة بن زياد والمفضل بن عمرو الجعفي ومعمّر بن راشد وميسر بن عبد العزيز ونوح بن دراج وهارون بن خارجة وهشام بن سالم الجواليقي وهشام بن الحكم الكندي ويونس بن يعقوب بن قيس في عهد الإمام الصادق (عليه السلام) وبعض هؤلاء وغيرهم كإسحاق بن محمد وإبراهيم بن عبد الحميد وأحمد بن

محمد بن أبي نصر البزنطي وثلعة بن ميمون وجميل بن
دراج وحماد بن عيسى وحماد بن عثمان وحنان بن سدير
والحسن بن محبوب والحسن بن الجهم الشيباني
والحسين بن خالد والحسن بن محمد بن سماعة وداود بن
كثير الرقي وداود بن فرقد وزرعة بن محمد الحضرمي
وسليمان بن جعفر الجعفري وصفوان بن يحيى وعمر بن
يزيد وعمر بن أذينة وعبد الكريم بن عتبة الهاشمي وعمار بن
موسى الساباطي وعلي بن يقطين وعبد الله بن جندب البجلي
وعبد الله بن المغيرة وعبد الله بن جبلة وعلي بن الحسن
الطاطري وفضالة بن أيوب الأزدي ومحمد بن أبي عمير
ومحمد بن عذافر ومحمد بن يونس
ومحمد بن إسماعيل بن بزيع وموسى بن سعدان الحنات
والنضر بن سويد ويحيى بن عمران الحلبي ويونس بن عبد
الرحمن في عهد الإمام الكاظم (عليه السلام)، وبعض هؤلاء
وغيرهم كأحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي
وأحمد بن عامر بن سليمان الطائي وإدريس بن عيسى
الأشعري القمي وإبراهيم بن أبي محمود وإسماعيل بن سعد
الأحوص الأشعري القمي وإسماعيل بن مهران السكوني
وأحمد بن عمر الحلال وإبراهيم بن أبي البلاد وأيوب بن
نوح بن دراج وإسحاق بن محمد الحضيني وإبراهيم بن
هاشم القمي وإبراهيم بن محمد الهمداني وجعفر بن
محمد بن عيسى اليقطيني وأخيه محمد وجعفر بن بشير

الوشاء البجلي والحسن بن علي بن فضال والحسن بن سعيد
الأهوازي وأخيه الحسين والحسن بن علي الخزاز الوشاء
والحسن بن علي بن يقطين وأخيه الحسين والحسين بن
عمر بن يزيد والحسين بن يسار المدائني والحسين بن يزيد
النخعي النوفلي وحمدان بن سليمان النيسابوري وداود بن
القاسم الجعفري ودعبل بن علي الخزاعي الشاعر والريان بن
الصلت وزكريا بن عبد الصمد القمي وسليمان بن جعفر
الجعفري وسعد بن سعد الأحوص الأشعري القمي
سعيد بن سعيد القمي وعبد الله بن المغيرة وعلي بن سويد وعبد
العزیز بن المهتدي وعبد الله بن الصلت التيمي وعبد
السلام بن الصلت الهروي وعبد الله بن محمد الحجال
وعمران بن محمد بن عمران وعلي بن مهزيار وعلي بن
حديد وعلي بن يحيى بن الحسن وعلي بن المسيب وعلي بن
الحكم وأخيه جعفر وعلي بن سيف بن عميرة والعباس بن
موسى النخاس والعباس بن معروف وعلي بن النعمان
وعلي بن إسماعيل بن شعيب الميثمي وعيسى بن هشام
الناشري الأسدي وعبد الرحمن بن أبي نجران ومحمد بن
الفضل الأزدي ومحمد بن خالد البرقي ومحمد بن الفرج
الرخجي ومحمد بن عبد الحميد العطار ومحمد بن عبد الله
الأشعري القمي وموسى بن القاسم بن معاوية بن وهب
البجلي ومحمد بن أورمة ويعقوب بن يزيد بن حماد الأنباري
الكاتب ويعقوب بن يقطين في عهد الإمام الرضا (عليه السلام)،
وبعض هؤلاء وغيرهم كإسحاق بن إبراهيم الحضيبي
وأحمد بن محمد بن خالد البرقي وأحمد بن إسحاق بن سعد
الأشعري القمي وأحمد بن حماد المحمودي وإبراهيم بن
مهزيار وأخيه داود وجعفر بن محمد بن يونس الأحول
والحسين بن أسد والحسن بن راشد وشاذان بن الخليل والد
الفضل وعلي بن بلال وموسى بن عمر بن بزيع والمختار بن
زياد العبدي ومحمد بن عبد الجبار ومحمد بن الحسين بن
أبي الخطاب الزيات ومحمد بن الحسن الواسطي ونوح بن
شعيب البغدادي وأبو الحسين بن الحصين الحضيبي في عهد
الإمام الجواد (عليه السلام)، وبعض هؤلاء وغيرهم كأحمد بن
حمزة بن اليسع القمي وأحمد بن محمد بن عيسى القمي
وإبراهيم بن إسحاق وأحمد بن إسحاق الرازي والحسين بن
مالك القمي ورجاء العبرتائي وصالح بن محمد الهمداني
وعبد العظيم بن عبد الله الحسن بن علي بن الحسين الهمداني
وعلي بن جعفر وعبد الله بن جعفر الحميري وعلي بن
الحسن بن فضال وعلي بن محمد بن زياد الصيمري وعلي بن

الريان وعثمان بن سعيد العمري والفضل بن شاذان
ومحمد بن الحسن الصفار ومحمد بن سعيد بن كلثوم
المروزي ومحمد بن علي بن مهزيار ومحمد بن مروان
الجلاب ومحمد بن الريان بن الصلت والنضر بن محمد
الهمداني في عهد الإمام الهادي (عليه السلام)، وبعض هؤلاء
وغيرهم من أمثال إسحاق بن إسماعيل النيسابوري وأحمد بن
إدريس القمي المعلم وجعفر بن سهيل والحسين بن أشكيب
المروزي والحسن بن موسلا الخشاب والحسن بن علي بن
النعمان والحسين بن الحسن بن أبان والسندي بن الربيع
وسعد بن عبد الله الأشعري والعمركي بن علي البوفكي
ومحمد بن علي بن بلال ومحمد بن إبراهيم بن مهزيار
ومحمد بن أحمد القمي الجعفري ومحمد بن صالح بن
محمد وهارون بن مسلم في عهد الإمام العسكري (عليه السلام)،
والآلاف من غيرهم ممن لم يسع المجال لذكره ضمن هذا
الاختصار بما فيهم العشرات من أولاد الأئمة (عليه السلام)، من
بعدهم المئات ممن عاصر الإمام المهدي (صلوات الله عليه)
سيما النواب الأربعة، ومن بعده المئات ممن تتلمذ على يد
أصحاب الأئمة (عليه السلام) بشكل مباشر أو ما يقرب منه:
أحمد بن إبراهيم وأخيه محمد المعروف بعلان الكليني،
وإبراهيم بن محمد الختلي وأحمد بن عيسى بن جعفر العلوي
العمري وإبراهيم بن نصير وأحمد بن محمد بن سعيد
المعروف بابن عقدة وابنه محمد وأحمد بن محمد الزراري
وأحمد بن محمد بن يحيى العطار وأحمد بن إبراهيم بن أبي
رافع الصيمري وأحمد بن إبراهيم بن أحمد العمي وأحمد بن
محمد بن عياش وأحمد بن عبدون المعروف بابن الحاشر
وإبراهيم بن محمد الثقفي وأحمد بن أبي زاهر وأحمد بن
عبد الله بن مهران وأحمد بن إبراهيم الجلودي وأحمد بن علي
الفايدي وأحمد بن محمد بن نوح السيرافي وأحمد بن علي
المعروف بالنجاشي وأحمد بن يحيى المكنى بأبي النصر
وجعفر بن علي بن أحمد القمي الرازي وجعفر بن محمد بن
مالك وجعفر بن محمد بن أيوب وجعفر بن محمد بن قولويه
وأولاده علي ومحمد وجعفر بن محمد بن مسعود العياشي
وأبيه محمد بن مسعود العياشي وجعفر بن محمد الدورستي
والحسن بن موسى النويختي والحسن بن علي الخياط الرازي
وحيدر بن محمد بن نعيم السمرقندي وحمدويه بن نصير
وحميد بن زياد والحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن
بابويه المعروف بالشيخ الصدوق ووالده وأخيه محمد
والحسين بن الحسن بن محمد بن موسى بن بابويه
والحسين بن عبد الله الغضائري وابنه أحمد وعلي بن
أحمد بن علي الخزاز وعبد الله بن أحمد بن نهيك وعلي بن
محمد بن الزبير وعبد العزيز بن عبد الله بن يونس الموصلي

وعلي بن حاتم بن أبي حاتم القزويني وعلي بن الحسين
السعد آبادي وعلي بن الحسين الموسوي الملقب بالشريف
المرتضى وأخيه الشريف الرضي وعبد العزيز بن يحيى
الجلودي ومحمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد ومحمد بن
علي بن يحيى بن ماجيلويه القمي ومحمد بن أحمد بن يحيى
الأشعري ومحمد بن علي بن محبوب ومحمد بن همام
البغدادي ومحمد بن عبد الله بن جعفر الحميري ومحمد بن
يحيى العطار ومحمد بن يعقوب المعروف بالكليني
ومحمد بن نصير الكشي ومحمد بن عمر بن عبد العزيز
المعروف بالكشي ومحمد بن محمد بن الأشعث الكوفي
ومحمد بن أحمد بن عبد الله الصفواؤي ومحمد بن محمد بن
النعمان الملقب بالمفيد ومحمد بن جرير بن رستم الطبري
ومحمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي وهارون بن
موسى التلعكبري وغير هؤلاء من الآلاف من العلماء الذي
يتبعونهم بما فيهم أساطينهم كابن إدريس والمحقق الكراكي
وابن شهر آشوب وعلي بن عيسى الإربلي وابن فهد الحلي
والسيد ابن طاووس والعلامة الحلي والمحقق الحلي
والخواجة نصير الدين الطوسي.

تفاصيل هذه العقيدة، وبذلت من أجل ذلك جهودا مضنية تنكبها جميع من اشترك في هذه الصياغة، وبناء على القواعد العامة وتفصيلها التي وضعها هؤلاء سار ركب العلماء في عصر الغيبة الكبرى لتصوغ أقلامهم الشريفة الصورة الأكثر تفصيلا لمتبنيات العقيدة الطاهرة، ولا يمكن نعت هؤلاء جميعا بعدم القدرة على صياغة مفردات هذه العقيدة، وفيهم من عرف بقوة الجدل وكثرة التحقيق.

ولا يمكننا فهم الإمام (عليه السلام) - أي أمام منهم صلوات الله تعالى عليهم) - إن قلنا بأنهم (صلوات الله عليهم) رغم كل ما رأوا من ذلك الجهد المحموم للإساءة إلى خط أهل البيت (ع) وتشويه معالمه وطمس آثاره ومحو عقيدتهم، وهو الجهد الذي لم يتوان حين وافته الظروف من أن يسفك أعز الدماء وأقدسها عند الله، ورغم كل ما تكبدوه من آلام ومحن ومرارات أوهنت الصم الصلاب، والتي عبرت عنها بأصدق تعبير القديسة الطاهرة فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) بقولها وهي تخاطب الرسول (ص):

صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليها
ورغم كل ما رأوا من محاولات التحريف المناصفة

أو المغالية، فإنهم رغم كل ذلك لم يبالوا بما جرى عليهم، وجلسوا واضعين أكفهم على خدودهم، دون أن يبينوا معالم الدين وأصول العقيدة بكل تفاصيله، وهل يمن لأحد أن يتصور أن الإمام (ع) الذي عايش فتن وضلال المغالين والناكثين والنواصب، وكذا شبهات وشكوك الذين خرجوا عن الصف من الواقعة والفظحية والإسماعيلية والزيدية وغيرهم، لم يبال بشيئته فلم يبين لهم ما عليهم القيام به وما عليهم الاعتقاد به؟!، فإذا ما كان رجلنا الذي نتحدث عنه قد وعى - حسب ما يدعي - مشكلة الموضوعين في حديث الأئمة (ع) كالمغيرة بن سعيد العجلي وابن أبي الخطاب الأسدي وأضرابهم، فراح يدعو للتدقيق بحديث أهل البيت (عليهم السلام) (١) فهل أن ما تنبه إليه تراه قد غاب عن ذهن الأئمة (عليهم السلام) وأصحابهم، فلم يتنبهوا إلى الآفة التي تبعد الناس عن طريقهم، وتضل الأمة عن حقائق الاعتقاد وأصوله؟! رغم كل التأكيدات التي صدرت عنهم (صلوات الله تعالى عليهم) لأصحابهم بتنقية الحديث وسهرهم على ذلك!! . أيعقل أن ثمل الإمام الكاظم (صلوات الله عليه) الذي عرف الرشيد وظلمه يقف الوقفة المشهودة في قبال

١ - أنظر الندوة ١ : ٥٣٩ .

الرشيد وعلى مرأى ومسمع من الملاء، ليجابه الرشيد لأنه أراد أن يزيّف واحدة من حقائق الأمور، فتراه لا يتحمل زيف الرشيد في طبيعة سلامه على رسول الله (ع) بلفظة يا ابن العم، فينتفض الإمام (ع) ليصحح مسار الأمور، ورغم ذلك لا يبادر إلى تصحيح مسارات العقائد التي يدعي رجلنا أنه قد وضع من قبل الغلاة والوضاعين؟! لا أعتقد أن ثمة مسلم يستطيع أن يتجرأ للتلفظ بمثل هذه الأمور فضلاً عن الإعتقاد بها، ولعمري إن هذا الأمر لربما ينهل من نفس المنهل الذي ورده أهل العامة فرأوا الرسول (ص) يشرع لهم آداب التخلي، ويغفل عن التشريع لهم بمسائل الإمامة وأصول التشريع!!

وفي هذه الطبعة ثمة أمور جديدة نشير إليها عبر النقاط التالية

أ - ما أشكل على البعض في شأن عدم تيسير الدليل العقلي للشارع الشعبي حاولنا جاهدين في هذه الطبعة أن نزيد لغة الإيضاح فيه بشكل يمكن معه أن نتلافى ما أشار إليه هؤلاء الأعزاء في هذا المجال.

ب - وقد وصلتني من أحد العلماء الأعلام مشكوراً بعض الملاحظات التي يمكن معها للكتاب أن

يستوعب الكثير من تفصيلات مادة الموضوع، وإني إذ أعرب عن عظيم امتناني لتفضله بذلك، إلا أنني لم ألتزم ببعض هذه الملاحظات لسبب جوهرى، وهي أنها تمثل أبحاثا عالية المضامين وجدية المحتوى، لم أجد أن وظيفة الكتاب الحالي بقادر على استيعابها.

ج - تمنى أحد الأعلام مشكورا أن أتحدث عن التوفيق بنى الروايات المتعارضة بشأن علم الإمام (صلوات الله عليه) ورغم أن هذا البحث يحتاج إلى حيز يختلف عن حيز هذا الكتاب، إلا أننا تحدثنا عن بعضه بمقدار ما يتناسب مع علاقة موضوعه علم الإمام (عليه السلام) مع الولاية التكوينية، على أمل أن نخصه ببحث مستقل.

د - هذا وقد لاحظت لنا أفكار جديدة طرحها التيار التحريفي حاولنا استيعاب الرد عليها.

هذا وإني إذ أعرب عن شكري وامتناني لجميع الذين ساهموا بنقد هذا الكتاب، وفي كل صور هذا النقد، أتمنى على الجميع أن يتابعوا نقدهم وتقويمهم لما قد أكون زللت فيه أو هفوت عنه، رغبة مخلصه مني للوصول إلى الأفضل.

وأخيرا أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا لعمل قرينة خالصة له، وأن يجعله ذخرا لي ولوالدي يوم لا ينفع

الإنسان إلا ما قدمت يداه، وما توفيتني إلا بالله العلي
العظيم نعم المولى ونعم المعين. ولآخر دعوانا أن الحمد
لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله الأمين وأهل بيته
الغر الميامين وسلم تسليما كثيرا.

جلال الدين علي الصغير
المهجر في ١٧ / صفر الخير ١٤١٩ هـ
الجمهورية العربية السورية - دمشق
السيدة زينب (ع) ص. ب ٦٢٥

مقدمة الطبعة الأولى
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الخلق أجمعين سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد
المصطفى، وعلى الهداة الميامين من آله الطيبين
الطاهرين.
شهدت الساحة العقائدية مؤخرا عودة الجدل إلى
جملة من الأبحاث الفكرية التي لها سمة البنية الأساسية

في الفكرة الإسلامي، وذلك على أكثر من صعيد، وكان هذه العودة تأتي تلبية لمتطلبات الإيحاء الغربي لرجال الفكر الرامي لحث هؤلاء على التنقيب أولاً في العقائد المتداولة بعنوانها بديهيات أو مسلمات عقائدية ومحاولة اكتشاف حقيقة احتلالها لموقع البديهة في البناء الفكري وذلك تحت ما يسمى ب (حفريات المعرفة). وهي متطلبات تعود إلى الرغبة في إيجاد جو من التشكيك بالمسلمات العقائدية، بصورة يمكن معها تمييع الإحساس بقضية المقولة العقائدية، ومن ثم قتله، وهو أمر إن حصل فسيؤدي لا محالة إلى تهشيم هالة القدسية تجاه النص الإلهي أو تهميشها، لأن هذه العقائد تقوم على أساس فهم ولده النص الشرعي، وحيث إن هذه لم تصمد، فإن من البديهي عودة ذلك لما تستند إليه من مقدمات فكرية وعقلية.

ولو نظرنا إلى الأمور بصورة ثاقبة فإن من السهل علينا أن نلاحظ أن المتطلبات الغربية هذه تحكي مهمة حضارية غربية ضخمة هدفها يرتبط بعوامل السيطرة على منابيع حركية الأمة، في وقت شهدت - ولا زالت - معادلات السياسة الغربية إزعاجات وتنغيصات كبرى كان سببها والوعي الحركي الإسلامي، وحيث لم يجدوا في الإجراءات الإرهابية من قتل وتدمير وقمع وما شاكل

تأثيراً على حركة الأمة، بل ظلت هذه الحركة تتوقد أكثر، راحوا يستعيرون من دروس نهضتهم الحضارية درس التشكيك العقائدي الذي هزم الكنيسة الأوروبية أما زحف البرجوازية الرأسمالية بفضل جهود بعض مفكريهم حتى تمخض ذلك عن الشك بكل شيء وفق ما طرحته الفلسفة الأوروبية من خلال الفيلسوف عمانوئيل كانت، والفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارات في مقولته الشهيرة: (أنا أشك إذن أنا موجود).

وحيث إن هذا الشك مكنهم من تدمير عقيدة شعوبهم، وبالتالي مكنهم من إعادة صياغة عقولها، جاؤوا ليحاولوا إعادة التجربة مع هذه الأمة، مستعينين بطبقة من أبناء هذه الأمة ممن ترعرع في جامعاتهم واحتضنته رساميلهم وأبواقهم الإعلامية، فمنهم من راح يسعى بكل جدية لإعادة صياغة العقلية العربية والإسلامية (١) بحسب زعمه، ومنهم من راح يبذر مفاصل عزلة الأمة عن الإسلام (٢).. وهكذا.

١ - أنظر في هذا المجال المحاولات الفكرية لمحمد عابد الجابري، ومحمد أركون، وحسن حنفي، وبرهان غليون، ونصر حامد أبو زيد.. وغيرهم.

٢ - أنظر محاولات طيب تيزيني، وعزيز العظمة، وهادي العلوي، وصادق جلال العظم.. وغيرهم.

لقد كان الغرض لدى هؤلاء جميعاً إضفاء ظلال من الشك في قلوب الناس وعقولهم حول سلامة معتقداتهم، وزينت لهؤلاء فكرة التحديث في الفكر، والانعقاد من إفسار الارتباط بالفكر القديم، مما استغفل طائفة من مثقفهم وجرهم للوقوع في حبال هذا المخطط، فتحت اسم الأكاديمية وشروط البحث العلمي وضعوا لعقولهم مسارات تتحكم بها آليات منطقية غريبة عنا، مما أضاع عليهم بصيرتهم، فجعلهم ينكرون هذه الفكرة، ويشككون بتلك، ومن ثم ليقودوا بخديعتهم هذه سلسلة من التأثيرات الفكرية على بعض من حمل جانباً من الثقافة الإسلامية، ليدخلوهم في داخل اللعبة، لأمر الذي بدأ ينشأ لنا تيارات تدخل في المسمى الإسلامي، ولكنها تفرق في المحتوى العقائدي، لنحصل بالنتيجة على حصيلة غير مباركة من الأفكار والمعتقدات القائمة على مبدأ الشك أكثر من تسليحها بالدليل أو البرهان.. ومن جملة هذه الأبحاث التي طالها الجدل مؤخرًا،

موضوع (الولاية التكوينية)، الذي طرح مؤخرا في أكثر من مجال، إثباتا ونفيا، وتفاوتت فيها الآراء بين رأي مثبت يراها خصيصة لازمة من خصائص اللطف الإلهي يوليها إلى خاصة أوليائه، وبين ناف لها يعدها من مجعولات الغلاة على الفكر الإسلامي.

وقد كان البحث للأمس القريب بمعية الكثير من الأبحاث مورد تجاذب جدلي ما بين الفكر الملتزم بمدرسة أهل البيت (ع)، ومعه لفييف من علماء الفكر الإسلامي ممن لا ينتمون إلى هذه المدرسة، وما بين بعض الحشوية ومن ثم أنصار الوهابية بصورتها القديمة والحديثة. ولهذا شهدت ساحة الجدل ما بين الفريقين ردودا فكرية وأخرى مضادة لها وثالثة نافية للضد.. وهكذا دواليك.

وأظنني لا أكون مبالغا إن قلت أن المعنيين بشؤون الفكر الإسلامي، ومنذ مطلع السبعينات حسبوا أن الحاجة لطرق موضوعات من هذا القبيل قد خف مرة لمدى الوضوح الفكري الذي بلغته، وأخرى لأن حجم الهجمة الثقافية والفكرية والسياسية المسلطة على الأمة، وما يفرضه ذلك من تحديات تواجه مستقبل الأمة وهويتها الحضارية، يستدعي التفرغ لإفrazات تلك الهجمة، لا سيما وأن الإسلاميين غدو اليوم أصحاب مؤسسات لها

فاعليتها في الشأن الحياتي اليومي للأمة الإسلامية على
شتى الأصعدة. (١)
إلا إننا شهدنا في الآونة الأخيرة عودة للبدء، وفي
هذه العودة، تعرضت الكثير من متبنيات الفكر الإمامي
لحملة تشويه وتشكيك، ولا غرو من القول بأن ذلك جاء
منسجما، بل وتلبية لما طرح - مؤخرا - في الكثير من
الأدبيات السياسية الغربية من عد التشيع أحد أهم
المخاطر التي تهدد المصالح الغربية، والتي ينبغي
مواجهتها والتصدي لها، وليس من العسير ملاحظة جهد
محمود يبذل من مدة من قبل بعض أدعياء الثقافة لترديد
نفس تفاهات الأمس ولكن بمغلف يحمل مرة اسم
الحدائث، وأخرى اسم لغيره على الإسلام، ودواعي
البحث الموضوعي.
وقد تميز الغزو الثقافي هذه المرة بتجنيد أسماء
شيعية - وإن كانت نكرة - للطعن بفكر الإمامية (٢) حيث

-
- ١ - بغض النظر عن حجم هذا التمثيل وصدقته، ومدى إفصاح
هذه الفاعليات عن حقيقة التمثيل الإسلامي.
٢ - أنظر ما لفقّه - مؤخرا - أحمد الكاتب (عبد الرسول
اللاري) في منشوراته حول الإمام المهدي سيما في كتاب
تطور الفكر السياسي الشيعي، وما نشره في نشرته المدعاة
بالشورى، وكذا ما نشر من تزيف وتجديف من قبل أياد
الركابي في الكتابين المنسوبين له تحت اسم نقد العقل
الإسلامي وعلم الإمام المستل من الكتاب الأول، ومقدمة
في التصحيح والإصلاح الديني!!!.
وكذا ما تضمنه كتاب سيرة النبي وأهل بيته المنشور من قبل
دار البلاغ من تزيف للوعي العقائدي وللحقائق التاريخية
المرتبطة بعقائد أهل البيت (عليه السلام).

انبرت بوعي ومن دونه في خضم ذلك.

وعلى خلاف رأي العديدين من رجالات الفكر الإسلامي الذين رأوا في ما طرحه هؤلاء محاولات خدش فكري لا تستلزم الرد لكونها لا تترك أثرا في الساحة الفكرية المعاصرة، أو لأنها ليست بذى قيمة، أعتقد أن المسائل العقائدية مهما بدت صغيرة يمكن لها أن تترك آثارا جممة في حياة الفرد الخاصة أو العامة، فموضوع مثل موضوع (الولاية التكوينية)، والتي قد يعتقد البعض أن لا مساس لها في الحياة العامة، نجد أنها تدخل في صلب العديد من الأمور الجوهرية للإنسان المسلم، فعلى هذه الموضوع - مثلا - تتكأ نظرية غيبة الإمام المنتظر المهدي

(عج)، ومن دون مقولة الولاية التكوينية لا يمكن التحدث بهذه النظرية وفق التفكير الإسلامي الإمامي، ومعلوم أن هذه النظرية يبتني عليها العديد من نظريات العمل السياسي والفقهية، وما إلى ذلك، لذا لا أعتقد أن من المبرر لهؤلاء أن يتهاونوا تجاه أي تشكيك في المسائل العقائدية، مهما بدا المشكك واهنا في الاسم أو العنوان. * * *

ويأتي هذا البحث وما سيعقبه - إن شاء الله - تلبية للحاجة المترتبة على الهجوم العقائدي المعلن على الفكر الإمامي.

وقد قسمنا الحديث فيه إلى عدة أبواب أساسية، تناول أولها: محاولة إيضاح المقصود بمفهوم الولاية التكوينية، فيما تكفل الثاني: البحث في الأدلة التي نستفيد منها ثبوت مبدأ الولاية التكوينية، وقد قسمنا هنا الحديث إلى عدة محاور، أولها: خصصناه لدليل الإمكان العقلي الذي سنجد أنه يتيح للمرء الإمكانية العقلية والفلسفية اللازمة للقبول بمبدأ الولاية التكوينية، وثانيها: تكفل بتحدي الدليل القرآني الذي لا نجده يقف إلى الضد من هذا المبدأ كما وصفه أحد

المعارضين له (١)، بل على العكس من ذلك يفيض بالحديث عن مبدأ هذه الولاية الممنوحة للأنبياء والرسل (عليهم السلام)، وأكثر من ذلك نجد أن القرآن يتحدث عن إمكانية تمتع حتى الناس الذين لم يمنحوا درجة النبوة والرسالة بمقام الولاية التكوينية، كما في قصص آصف بن برخيا، والخضر، و (ذو القرنين) (عليه إسلام)، وفي المحور الثالث حاولنا تلمس الدليل من السنة الشريفة في موثوقات الصدور وصحيحها. ثم أفردنا الباب الثالث للحديث عن الشبهات والردود التي طرحت حول مبدأ الولاية..
* * *

إنني ومن خلال البحث أستطيع أن أقول أن مبدأ الولاية التكوينية، لا يمكن أن ينفك عن الإيمان به أي مسلم، فهو مبدأ قرآني ثابت، وهو يحتل في العقل

١ - أنظر محمد حسين فضل الله في مقالته صورة النبي محمد (ص) في القرآن، مجلة الثقافة الإسلامية (دمشق)، العدد: ٦٥ (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م)، ص ٧١ - ٧٢. وكذا ما أشار إليه في محاضرة مسجلة بصوته أحتفظ بها.

الفكري والفلسفي الإسلامي درجة القطع، بل أن مسلمات العقيدة المحمدية في المعصومين من أنبياء وأئمة (على نبينا الأقدس، وآله الميامين، وعليهم جميعا صلوات الله وسلامه) إن من أبسط حقوقهم الطبيعية في ممارسة مهامهم الرسالية هو أن يتمتعوا بخصائص الولاية التكوينية، وإن الذي ينكر هذا الحق إنما يعبر عن عدم فهم لخصائص المعصوم (عليه السلام)، وجهل بدوره، وبطبيعة علاقته مع الرب المرسل، والأمة المرسل إليها (١).!!!
أسأل الله أن يجعل هذا الجهد المتواضع بذلة في سبيله، وقربة لنبيه الأكرم وآله الطاهرين، فهو ما كان

١ - في ضمن عرضه لفهم ساذج لحقائق الإمامة ذكر أحد المعارضين تبعاً لأستاذه في درس حوزوي ألقاه أمام النساء في دمشق في معرض رده لمقولة الولاية التكوينية أن الإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن لديه ولاية تكوينية لأنه لو كان يمتلك مثل هذه الولاية فما له لم يناول الطفل الرضيع بضع قطرات من الماء؟ فقالت له إحدى الطالبات: أعتقد أن الله جل جلاله ليس لديه ولاية تكوينية أو ليس لديه رحمة، لأنه - وحسب افتراضك - أولى من الإمام الحسين بذلك ومأساة الطفل الرضيع تتم على شهادة منه، فما له لم يسق الرضيع حاجته من الماء!! بل ماله لم يخلص الإمام الحسين من القتل!!!.

ليكون لولا الرغبة في الانتصار لهم وإعلاء لدينهم
القويم، وصراتهم المستقيم.. إنه نعم المولى ونعم
المستعان..

كما وأتمنى على القارئ الكريم أن يتقبل هفوات
البحث - إن كان ثمة هفوات فيه - بعين الرضا، فعذري
أنها غير مقصودة، والبحث أعد على عجل، ولم تتسن
لمراجعة ما كتب في هذا المجال من قبل من سبقني،
فإن جاء البحث مرضيا فله المنة وله الفضل، وإن كان
ثمة ما لا يبعث على الرضا، فعذري أن لم أتقصد ذلك،
وما غايتي فيه غير أن أكون معذورا أمام الله ولنبيه (ص)
ولآل بيت النبي (ص) حينما رأيت بعضا من شؤون
الدين عرضة لتلاعب المغرضين. وآخر دعوانا أن الحمد
لله رب العالمين.

جلال الدين علي الصغير

دمشق ٢٥ / محرم الحرام / ١٤١٨ هـ

حزيران ١٩٩٧

الإهداء
إلى خاتمة المعصومين ومنار الهدى في بحر
الظلمات، وأمل المستضعفين والمحرومين
في زمن الطواغيت... بضاعة مزجاة بين
يديك الطاهرتين.. يا بقية الله وحجته، يا
قائم آل محمد الإمام المهدي المنظر
عجل الله فرجه الشريف.

تصدير
مقتضيات البحث والحوار
العلمي

في البدء لا بد من أن أشير إلى أن هذا البحث هو في الأصل سلسلة من المحاضرات كنت قد ألقيتها في فضاءات عامة (١)، أو أنها ألقيت على مجموعة من طلبة العلوم الدينية، وقد رافقت المحاضرات سلسلة من ردود الفعل السلبية التي اتسم البعض منها - وللأسف الشديد - بالشتائم وأسلوب الاتهامات التي لا علاقة لها بالفكر، وكان الغرض من هذه الردود في الأعم الأغلب أن أتخلى عن الرد على موجة التشكيك التي طالت بعض أطراف الساحة الفكرية، مرة لأن الردود كانت بعض المقامات التي كان لها هيمنة على بعض هذه الساحة، وأخرى لأنها فهمت كمواجهة سياسة مع طرف سياسي

١ - ألقيت في مؤسسة أهل البيت (عليهم السلام) في دمشق تحت عنوان التحديات المعاصرة لعقيدة أهل البيت (عليهم السلام) في عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م. وقد كان بحث الولاية التكوينية قد تصدر هذه المحاضرات تلاه بحث العصمة ثم القضاء والقدر ثم الشفاعة.

زج نفسه في متاهات التشكيك - وكان حريا به ألا يفعل -، هذا فضلا عن الجهد المحموم الذي بذله الطرف الذي تصدت المحاضرات للرد عليه وسعت إلى تفنيد شبهاته.

ولا أنوي هنا الدخول في تفسير نوايا أصحاب هذه الردود فهو ليس من شأني، ولا يهمني في ذلك إن كانت تنطلق من نوايا حسنة أو خلافها، ولكن ما يهمني هو أن أشير إلى جملة من القواعد التي افترض أنها بديهيات في قواعد البحث والحوار العلمي، حيث أجد أن تلك الردود قد خالفتها وشذت عنها إلى حد بعيد.

ومن جملة هذه القواعد أذكر ما يلي:

أ - إن البحث العلمي - أي بحث كان - لا يعتمد - قوة أو ضعفا - على المقام الاجتماعي أو الروحي للباحث - ما لم يكن معصوما - مهما كان المقام سامقا، فدليل قوة البحث هو سلامة المقدمات العلمية وقوة الأدلة والبراهين المقدمة للتدليل على فكرة ما، كائنا من كان قائلها، ويستتبع ذلك أن الكثرة العددية المحشورة وراء قبول فكرة ما، لا تدخل في دلائل سلامة الفكرة، إلا أن تكون هذه الكثرة تقف على أدلة فكرية ومنطقية مقبولة، فتكون بمثابة الداعم المعنوي للفكرة لا

أكثر، فأن يكون أكثر من نصف العالم المعاصرة الآن لا يعترف بحقانية الإسلام، فليس ذلك بدليل على عدم أهلية الإسلام لقيادة الركب العالمي نحو بر الأمان، وقد علمنا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أن لا نتهيب طريق الحق إن قل من يسلكه بقوله: لا تستوحشن طريق الحق وإن قل سالكوه.

ب - إن التشكيك بأي فكرة أو عقيدة هو من أسهل الأمور الفكرية، وإن قدرة شخص ما على حشر عدد كبير من التشكيكات ليس دليلا على علميته، وبالتالي ليس دليلا على وهن الفكرة المشكك بها، والعبرة في ذلك تبقى دوما في قدرة التشكيك على نقض الفكرة منطقيا، فمن السهولة بمكان أن تشكك بفكرة وجود الله، وأن تحشر بين يدي عملية التشكيك هذه مجموعة من أشباه الأفكار، ولكن من المتفق عليه علميا أن ذلك لا قيمة له في قبال عدم تمكن عملية التشكيك هذه في نقض الدليل الفكري المقدم لإثبات فكرة وجود الله.

ويتحول موقف التشكيك مريبا، بحيث قد يخرجنا في بعض الأحيان من دائرة الفكر، إلى دوائر مشبوهة، إن اتسم بصفتين: -

الأولى: أن تطرح الفكرة التشكيكية لغرض

التشكيك فحسب، مجردة عن أي بديل أو دليل فكري بالمقابل، كما فعل أحدهم حينما قال أن جميع الأدلة التي جاء بها العلماء القدامى حول العصمة لا تقوى على رد النقد المعاصر الموجه إلى فكرة العصمة، دون أن يسمعنا من جهة ما هو النقد المعاصرة لهذه الفكرة، ولا يعرفنا على مكانات عي أدلة العلماء القدامى عن رد النقد المعاصر، هذا فضلا عن أن يأتي هو بديل يفند فهي النقد المعاصرة المزعوم، وكل ذلك في محاضرة عامة أذيعت عبر جهاز الراديو (١).

الثانية: أن المشكك يستخدم في سبيل الترويج لتشكيكه أساليب بعيدة عن منطقية العملية الفكرية، فمن المعروف أن منطقية أي فكرة تعتمد إما على طريقة الاستقراء أو على طريقة الاستنباط في استخراج البرهان الفكري، مما يعني أننا لو آمننا بمبدأ عام، فإن من البديهي الحدود التي يحددها هذا المبدأ، والعكس صحيح أيضا، فلو جمعنا تفاصيل شتى ووجدنا أنها مجموعة ضمن إطار يقودنا إلى مبدأ كلي، فمن الواجب عندئذ أن يكون إيماننا بهذه التفاصيل طريقنا للإيمان بذلك المبدأ، ولكن

١ - نحتفظ بها مسجلة بصوته.

حينما نجد عملية تشكيكية تناقض طريقي الاستقراء والاستنباط في تجميع وتفكيك المفردات الفكرية، ويكون همها أن توقعك بالشك، عندئذ هي إما أن تخبرك بشكل مباشر أنها لا تؤمن بما تعلن الإيمان به، أو أن قصدها هو تخريب التركيبة الفكرية التي تعتمدها الأمة، كما نجد في محاولة البعض في التحدث عن موضوعات فكرية (كفكرة العصمة) (١) مستعينا بمشارب فكرية متعددة منها ما ينقض العصمة، ومنها ما يثبتها جزءاً أو كلاً، وذلك في الحديث عن تفصيلاتها، فمثل هذا الشخص إما أن يريد أن يقول لك أنه لا يؤمن بالعصمة مطلقاً، ويحاول عبر هذا التضييب الفكري أن يمهد لجرأته في إعلان عدم إيمانه، أو أن لديه غرضاً يتعدى مسألة القبول والرد لهذه الفكرة إلى ما شاء الله من الاحتمالات المرئية.

وتزداد درجة هذه الريبة عنفواناً إذا كان طريق التشكيك يعتمد أسلوب الكذب والتمويه والمماطلة الفكريين والتعامل الإرهابي مع الطرف المقابل كما هو الأمر الحاصل بالفعل مع ما كنا نسميه بتيار

١ - نتحدث عن تفصيلات ذلك في بحثنا عن العصمة إن شاء الله.

المشككة!. (١)

ولهذا فمن الحري أننا حينما نستمع إلى تشكيك ما
بفكرة هي موجودة بالأساس أن نتفحص قدراتها الفكرية
والمنطقية في التفاضل على ما سبقها من أفكار، كائنا نم
كان قائلها، لأن التشكيك ألحق أساسا بفكرة كانت تحظى
بالقبول سابقا، ومن دون أن تدعم عملية الشك هذه
البراهين الكافية على سلامتها، فإن محض التشكيك لا
يعني نبذ الفكرة المشكك بها.

ج - إن أسلوب الشتائم والالتهام غريب كل الغرابة
عن أسلوب البحث العلمي، هذا فضلا عن مخالفته
لبديهيات الأخلاق الإسلامية، والمطلوب دائما هو
مقارعة الحجة بالحجة والفكر بالفكر، أما مواجهة الفكرة
بالتشهير فهو عنوان للعي والعجز تكتشف معه هوية
الفكر.

١ - وذلك للتطور البديهي في عملية التشكيك، فهي تنطلق
تشكيكا، ولكنها غن وجدت في نفسها قدرة المتابعة،
أصبحت معارضة، فمن حيث الواقع أودت المواجهات
الفكرية والاجتماعية وما استتبع من مقام المرجعية الديني
العليا من إصدار حكمها بتصنيف داعية التشكيك ومن يتبعه
بعنوان الضلال والإضلال وبكونه خارج المذهب الشريف.

د - إن طيبة الأمانة العلمية في التعامل مع الأمة
نقتضي أن يخوض المشكك بأي فكرة حواراً متكافئاً
معها، بمعنى إنني حينما أريد أن أخوض بفكرة خلاف ما ه
ومتسالم لدى الناس، فإن من المنطق بمكان أن
أخوض بها في وسط متخصص جدير بمناقشة الفكرة، أما
أن أطرح هذه الفكرة في فضاءات عامة غير مزودة بآليات
موضوعية للحوار (١) وعبر وسائل الاتصال الجماعية،
بعنوانها من المسلمات الفكرية، فإن هذا الأمر ينطوي
على خداع وتغريب بعقل الناس (٢)، ويكون مثل من

١ - كأن تكون مطلعة على تفاصيل الرأي الآخر، ومعززة بفهم
يعينها على إدراك حقيقة ما يطرح عليها، وما هي حقيقة
الملايسات التي تحيط بالموضوع المطروح، ولديها من
الوعي الاجتماعي والسياسي بحيث تعي الخلفية التي تنبثق
منها هذه الموضوعات، والمعطى الذي سبب على ذلك
في الساحتين الاجتماعية والسياسية، لا سيما وأن الساحة
الإسلامية بشكل عام والشيعية منها بشكل خاص لم تعد
معزولة عن الحركتين السياسية والاجتماعية، بل على العكس
قد نجدها في

الكثير من الأحيان على مساس مباشر مع
أحداث الساحتين، ولهذا ليس من السهولة بمكان أن تمر
عملية إحداث التغييرات ذات الطبيعة المرية دون أن تجابه
بالنقد والتفحص الكافيين.

٢ - أغلب هؤلاء قد يكتفي بتقرير عن الفكرة المطروحة من حيث
القبول بها أو عدمه ولا يطلب الدليل عليها، لا سيما إذا كان
المتحدث له صفة رجل الدين أو الفكر.

لديه ثقافة بسيطة في الطب حينما يتحدث به وسط
الفلاحين، فما من ريب سوف يتصور هؤلاء أنه لو تحدث بذلك
وسط أهل الخبرة في هذا المجال فإنهم وحدهم الذين
سيعرفون مدى ضحالة الخبرة الطبية لدى هذا الذي عده
الفلاحون نابغة فيه!!.

ومشكلة ثقافة التشكيك أنها أول ما طرحت،
طرحت في فضاءات اجتماعية مفتوحة عبر المحاضرات
العامة والراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والكتب
العامة، مستغلة بعض الوجوه التي لها سيماء الجاذبية
الروحية الظاهرية، فكان أن قدم لها ثقافة قيل لها أنها
ثقافة أهل البيت (عليه السلام)، فيما كان الواقع يقف خلاف
ذلك، وحينما يكون الأمر كذلك، فإن من البدهة أن
يأتي دور أصحاب الفكر والتخصص العقائدي ليكشفوا
عمق الخلل الكامن في ذلك، ومن المفارقات الطريفة هنا
أن أهل الفكر هؤلاء بمجرد أن انطلقوا بعملية الرد حتى
طولبوا بأن لا يطرحوا ذلك على الجمهور والاكتفاء بحوار
الجدران الأربعة المغلقة!! بعد أن كان هؤلاء يطالبون

تيار التحريف بضرورة اقتصار الطروحات التي تناقش
المسلمات العقائدية في منتديات متخصصة وتجنب
الشارع الشعبي نقاشات لا يستطيع أن يبت بها موضوعيا،
لعدم امتلاكه الأدوات التي تمكنه من خوض حوار
مسؤول، فكان رد هذا التيار المتسم بالتقريع بأنكم لا
تحترمون عقل الأمة، فدعوها تتعرف على الأمور وتحكم
بنفسها.

وبقدر ما تبدو الفكرة براقية، فإنها تنطوي على
خداع مفضوح، وهو يعرب عن غاياته من خلال أن تسمع
هذه الأمة - التي يكثر الناطقون المزيفون باسمها - من
خلال تيار التحريف فقط، أما أن ينبري لمناقشة أفكار
التحريف والتضليل، فهو ممنوع بحجة حفظ وحدة
الأمة!!.

إن من المسلم به أن البحث العلمي كلما انحصر
في دائرته التخصصية كلما آتى ثماره، ففي هذه الدوائر لا
محذور من بحث أي شئ مهما رقى في جردة القداسة
الفكرية، ولكن الخطاب إن كان جماهيريا فإن من الأمانة
أن يرعى هذا الخطاب الكثير من الحدود التي من شأنها
أن تضبط حركية هذه الجماهير وطبيعة تفاعلها مع
العقيدة، إذ من شأن هذا الخطاب أن يتعامل مع آمال
وآلام وطموحات الناس أو قل بالبعد الوجداني لهم، وأي

تفعل غير مسؤول لهذا البعد، يمكن أن يترك من الآثار الخطيرة ما يصعب توقع فداحته، ولهذا حينما انطلقت ثقافة التشكيك وهي تنتكر لهذه المسلمة الفكرية والاجتماعية، ومن ثم لتلقي بكلها على عاتق عقيدة الأمة عبر وسائل الاتصال الجمعية متدرعة بإمكانيات مالية ضخمة، (١) فإن من الضرورة بمكان أن يتحول الحديث من غرف المتخصصين المغلقة إلى الدائرة الجماهيرية المفتوحة، لأن ذلك يشبه إلى حد بعيد بسرطان المرض المعدى خارج دائرة المراقبة، الأمر الذي يجب فيه عدم الاكتفاء بهذه المنطقة، فالمسائل العقائدية لها هذه الطبيعة وأبحاثها لها صفة الانتشار السريع الأمر الذي يجب فيه معها مواجهة تيارات الانحراف والتشكيك، وعدم التغاضي عن مخاطرها، لا سيما تلك التي قد تتخذ طريق الخداع والتغريب بعيدا عن معايير البحث الموضوعي المجرد.

ه - إن مناقشة فكرة كان لا ينبغي أن يفهم على أساس أنه تجريح أو تشهير بشخصية صاحب هذه الفكرة بالغا من بلغ صاحبها ما لم يك معصوما، بالفكرة

١ - لا أعرف لم لا يتم مسألة هذه الجهة عن منابع إمبراطورية المال التي يتربعون عليها!!.

متى ما انطلقت من فم قائلها أصبحت صالحة للقبول والرد من قبل الآخر الذي سمعها، ولكما ألقىت هذه الفكرة على مساحة اجتماعية أوسع لكما غدت عرضة أكثر للنقاش على أساس الرد والقبول، ولهذا فما من حق لأحد أن يطرح فكراً، حتى إذا ما جوبه بالرد والنقد، راح يتباكى ومن ثم ليكيّل التهم لمنتقديه (١)، إن واقع الحال يكشف أن التباكي لا يعبر عن شيء من المظلومية بقدر ما يعبر عن جهل المتباكي، أو عيه عن رد النقد، بنقد فكري مماثل، هذا إذا لم نقل أن التباكي قد يخفي وراءه غاية

١ - من الطريف جدا هؤلاء الذين جابهوا فكر الأمة بأفكار تشكيكية راح يكيّل التهم العجيبة لمن ينتقده فتراه مرة يقول: أن ٩٩, ٩٩ بالمائة من الكلمات التي تقال ضده هي بتعبيره (كذب وافتراء وبهتان)، وأخرى يدعو أنصاره لحساب منتقديه على مخلفات قمة شرم الشيخ المشبوهة والاستكبار العالمي والموساد والمخابرات الأمريكية، وثالثة تراه يوزع إتهامات عدم الورع والتقوى وعدم الثبوت والحسد والغوغائية والجهل وعدم الفهم وعدم امتلاك الثقافة، ووجود عقد في أنفسهم، وما إلى ذلك!! والأكثر من ذلك طرافة أنه بعد أن يكيّل مثل هذه الاتهامات يشفعها بالدعوة للحوار!!، وإن عشت أراك الدهر عجبا!! (أنظر جريدة فكر وثقافة في العدد ١٢ الصادر في دمشق في ٧ / ٩ / ١٩٩٦ على سبيل المثال).

تتعدى الفكر إلى عوالم السياسة والاجتماع، فالمسألة الفكرية أيا كانت قدسيتها، فهي لا تحتاج إلى تباكي واتهامات، وإنما تحتاج إلى رد فكري مماثل. على أننا لا نعرف طريقاً لتضليل وعي الأمة وقتل حركيتها الفكرية، مثل طريق عدم القبول بنقد الفكر، وإحالة عقل الأمة إلى الجمود، لأن فلانا أو فلانا من أصحاب الأسماء الرنانة قد قالوا كلمتهم في هذا المجال أو ذاك، لأن في ذلك إغلاق لأبواب الفكر والمعرفة، وقد اعتاد علماءنا الإعلام (أعلى الله مقاماتهم) على عدم التحرج من نقد غيرهم مع مراعاة عدم خروج النقد عن دائرة اللياقة والأمانة الاجتماعيتين.

و - إن الحوار العلمي هو الحوار المبني على تحلي طرفي بشجاعة تبني آرائهم، حتى يعرف كل طرف موضوع الحوار، أما أن تطالب بالحوار ويأتيك من يتحدث معك على طريقة (قلت ولم أقل) أو بالتعبير الدارج يتكلم بآبن عم الكلام! فهو خداع يحاول أن يقتنص منك اعترافاً بقضية لم تعترف بها، فالذي يتحدث في مكان عن قضية وفي مكان آخر عن خلافها، على ماذا ستحاوره، هل تحاوره على إثباته أم تحاوره على نفيه، أو الذي يتحدث عن قضية مطلقة حتى إذا ما جابهته

بالنقد والاعتراض قال لك أن أتحدث عن قضية مقيدة،
كما فعل البعض في مواضع كثيرة، فمثلا في مكان قال:
أن حديث الكساء ضعيف السند (١)، وحينما تحدثت عن
قوة الحديث سندا وامتنا قال إنه لم يقصد حديث الكساء
العام، وإنما قصد حديث الكساء المنشور في كتب
مفاتيح الجنان!! وأمثال ذلك كثير (٢).

١ - أنظر مجلة الموسم في العدد: ٢١ - ٢٢ ص ٣١٤ - ٣١٥.

٢ - نقدم بين يدي القارئ الكريم ثلاثة شواهد على طبيعة
الخداع التي تمارس في هذا المجال، وهذه الشواهد لا
نقدمها على سبيل الحصر، وإنما كأمثلة اخترناها عن قضايا
كثرت الكلام بشأنها، وهذه الشواهد هي:
أولا: إنحناءة أما العاصفة:

من الواضح أن الرجل قال في ظلامه الزهراء (عليها السلام) ما قال
نفيا وإساءة لقدسية الزهراء (عليها السلام)، ولكننا بعد أن برزت
المواقف الغاضبة للعلماء الأعلام، رأينا الرجل يرسل رسالة
إلى العلم الجليل والمحقق الكبير السيد جعفر مرتضى
العالمي (حفظه الله تعالى) يذكر فيها أنه قال ما قال لأنه لم
يكن مطلعاً على المصادر، غير أنه رأى: أخيراً أن الحديث
عن محسن السقط ورد في كتب الخاصة والعامه، كما أن
حديث الإسقاط بالاعتداء جاء في رواية دلائل الإمامة
للطبري، وهكذا وردت أحاديث متعددة حول كسر الضلع
ونحوه من الفظائع. (أنظر الرسالة الثانية المرسله إلى السيد
العالمي المنشورة في كتاب جاء الحق: ٢٢٤).

ولكنه بعدها بمدة قليلة قال عبر إذاعته: أما الحكيم أننا
اعتذرنا في الواقع لم يكن هذا إعتذار، ولكن كان مواجهة
للحملة الظالمة التي كادت أن تتحول إلى فتنة في قم،
وطلب مني الكثيرون من الفضلاء أن أتحدث بطريقة تمنع
الآخرين من إثارة الفتنة، لذلك تحدثت بطريقة ليس فيها
اعتذار، ولكن فيها تخفيف من طبيعة الموضوع. (من شريط
نحتفظ فيه بصوته).

وهو الأمر أفصح عنه غاية الإفصاح حينما عاد لي طرح
المسألة من جديد دفاعاً عن رأيه تارة، وتصعيداً في الموقف
أخرى، حتى بلغ به الأمر أنه حج عام ١٤١٨ هـ صرح في
مكة وأما محفل من الحضور في مكتب صاحبه الهمداني
بأن الزهراء حينما تسمى بالشهيدة فإنها بمعنى أنها تأتي
شاهدة على الناس لا بمعنى أنها مقتولة!.

وكان قبله قد حرك أنصاره لكي يدفعوا عنه ذلك السيل من
الحجج الدامغة التي قدمها السيد العالمي في كتابه الموفق

مأساة الزهراء (عليها السلام) شبهات وردود فكتب له أحدهم هوامش نقدية، كتب الثاني مأساة كتب المأساة، والثالث مرجعية المرحلة وغبار التغيير، وسرعان ما تبين أن هذه الكتب هي كتب إدانة له أكثر مما هي كتب دفاع عنه، ويمكن للقارئ الكريم أن يراجع كتاب الفضيحة في رده على الأول، وجاء الحق في رده على الثاني، وحتى لا تكون فتنة في رده على الثالث.

ثانياً: علي (عليه السلام) وشرب الخمر! في طبعته الجديدة - التي لم تطبع، لكن انتشرت نسختها - للجزء السابع من تفسيره من وحي القرآن أورد ذكر رواية عن الطبري بعنوان أسباب النزول يذكر فيها أن آية (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) [النساء / ٤٣] نزلت في علي وعبد الرحمن بن عوف ورجل آخر كانوا قد شربوا الخمر. وقد هاله أن الأمر قد كشف، وبدأ الناس بالتساؤل الجدي عن هذا الموضوع، فقدم هو وجريدته أعدارا مختلفة تعبر عن مدى الكذب والافتراء الذي يملك هذا التيار، فمرة قال:

الطبعة الجديدة دس هذا الكلام فيها من قبل بعض الناس الغافلين، واستغلها بعض الناس الذي كان يتولى صف الأحرف. (محاضراته في السبت ١٢ / ١٠ / ٩٦ في حوزة المرتضى التابعة له).

ولكنه في العدد ١٧ من جريدة فكر وثقافة صرح بما يلي: إن هذا الكلام قد دس في الطبعة الجديدة من قبل من كان يتولى صف الأحرف. (فكر وثقافة، العدد: ١٧).

وفي أجوبته المؤرخة بتاريخ ١٦ / جمادى الثاني / ١٤١٧ هـ قال رداً على سؤال وجه إليه في هذا الخصوص: ناقضنا هذه المقولة الباطلة والمفترة علينا أكثر من مرة، والذي صف حروف التفسير للطبعة الجديدة، لم يصف مناقشتنا لهذه المقولة خيانة منه وكيدا وحسابه على الله سبحانه. (أنظر كتاب جاء الحق: ٢٥٣).

وهو كما ترى هنا يلقي بمسؤولية إيراد الرواية في الكتاب على بعض المغفلين في جهازه الإعلامي، فيما يكون دور الذي تولى صف الأحرف هو الاستغلال، وفي الثانية كأنه يبرأ ذاك المغفل الذي أشار إليه في المرة الأولى، ويلقي بكامل مسؤولية الدس على من تولى صف الأحرف، ولكنه في الثالثة برأ من ولي صف الأحرف من مسؤولية الدس، بل أشار ضمناً إلى وجودتها غير أنه ألقى عليه مسؤولية حذف المناقشة التي أوردتها ضد هذه الرواية!!.

فأي منها نعلم في النقاش لو أردنا مناقشته في أمر صغير كهذا، ولكن دفعنا لبس والإيهام نقول:

أولاً: جانب الرجل الشرع الشريف في شأن من ولي صف

الأحرف فهو مرة اتهمه في الاستغلال، وأخرى اتهمه بالدس وثالثة بالحذف والكيد، وكون هذه الاتهامات متناقضة التي تعبر على أدنى تقدير أنه لم يكن على بينة مما قام به هذا الرجل، وهي إتهامات من دون دليل.

ثانياً، أعقد أن كل من له أدنى خبرة في عالم تهيئة الكتب يعلم أن من تولى صف الأحرف لا يمكنه القيام بذلك لسبب بسيط هو أن الكتب في العادة تصحح لمرة على الأقل بعد صف الأحرف من قبل نفس صاحب الكتاب، وهو وحده الذي يعطي الضوء الأخضر في شأن تمام الكتاب، وفي علمنا الخاص أن الكتاب كان قد صحح ثلاثة مرات من قبل إدارة المركز الثقافي الإسلامي، وقد أنزل إلى المطبعة بعد أخذ موافقته النهائية على طبع الكتاب (كما صرح بذلك ب. ش مدير دار الملاك)، وأمر كهذا لا يمكن أن يمر معه من يتولى صف الأحرف - إن كان يريد ذلك - سوى بضع كلمات هنا وهناك أما أن يتولى الدس بقطعة ذات عنوان رئيسي من ٨ سطور كما يظهر في الصفحة ١٨٣ من الكتاب المذكور، فهو أمر لا يعقل أقول ذلك على مفاد ما ذكره في جريدة فكر وثقافة، أما على مفاد جوابه الثالث فإن الرجل لم يدس وإنما قام بحذف مقطوعة من صفحتين ونصف الصفحة وهو المقدار الذي وزعه المعني مؤخرًا، وهو أمر هو الآخر لا يمكن تعقله مع وجود تصحيح لمرة ثلاث من قبل أناس يركن إليهم بثقته.

ثالثاً: أشار في الجواب الأول أن الذي دس الكلام هو بعض الناس الغافلين، وتعبير كهذا يفرض أن هؤلاء من المحبين ولكنهم غفلوا عما قاموا به، ولعل تعبيره هذا فيه شيء من

الصحة، وليس كل الصحة، فالذي قام بعملية تحديد الكتاب هو المركز الثقافي الخاص به وكان يديرها (م. الحاج علي)، وقد سأل عن مدى علم الرجل فيما يقومون به فقال إنهم لا يمكنهم القيام بأي شيء من دون علمه وتوجيهه، فهو يعطيهم خطة العلم، وهو يتحركون بناء على توجيهه!. وهناك مناقشات أخرى، نرجئه إلى حين صدور الطبعة الجديدة من الكتاب، كي لا نقول ما يمكن حذفه بعد ذلك من الكتاب، على أن الذي يطلع على نظرة الرجل إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) الموجودة في كتابنا في رحاب دعاء كميل لن يستغرب أن يدعي أن الإمام (صلوات الله عليه) كان يشرب الخمر!.

ثالثا: الحسينيون العراقيون يشربون الخمر! في العدد الأول من جريدة منبر السبت (فكر وثقافة لاحقا) الصادر في ٢٠ / ٦ / ١٩٩٦ قال ما نصه: (ثمة أناس في العراق كانوا يحتفلون في يوم عاشوراء بشرب الخمر، فأى حزن على الحسين (عليه السلام) عندما يصبح الإنسان في غيبوبة، لقد كان البعض يشرب الخمر ليلة العاشر من المحرم من أجل الإحماء).

وحيثما قامت قائمة العلماء وعامة الناس على هذه القرية قال معتذرا بعذر لا يقل في القبح عن الفعل بأنه إنما عنى بعض القرى: التي لها وضع خاص وفيها الكثير من الانحراف العقيدي فإن الناس هناك يعيشون هذا الجو، وربما هم لا يتبعون التشيع بالمعنى الصحيح... إنما جاء الحديث عن مناطق تسع إلى التشيع في يوم عاشوراء. (فكرة وثقافة: العدد ٣ بتاريخ ٢٩ / ٦ / ١٩٩٦).

ثم قال بعده بمدة ناسيا أو متناسيا بعض ما قاله في العدد ٣ من فكرة وثقافة: لقد أوضحت في العدد الثاني!!،

السبت أني ولا

أعتقد أن هناك تناقضا!! بل كان هناك توضيح للحديث الأول!! (أنظر أجوبته في ٧ / رجب / ١٤١٧ هـ على أسئلة وجهت إليه في هذا الخصوص).

وكان قد ذكر في وقت مقارب بأنه إنما عنى بعض اليزيدية وفرقة الشبك وأمثالهم الذين يعيشون في شمال العراق، ومعلوم أن هؤلاء لا يقيمون أي احتفالات لها علاقة بالتشيع في يوم عاشوراء، والفرقة الأولى تصنف صنم المانويين والمجوسيين ولا علاقة لهم بالإسلام، أما الثانية فهي خليط كردي من الغلاة والصوفية، تأثر بالنصرانية، ولكنهم في ليلة ويوم عاشوراء لهم شأن خاص، ويسمون يوم عاشوراء بيوم

الكفشة لأنهم في هذا اليوم يخلعون أحذيتهم ويمشون حفاة إجلالا لما جرى في هذا اليوم على آل الرسول (ص)، ومن يعرفهم يعرف أن لهم في اليوم واللييلة حالة عظيمة من النواح والبكاء على آل الرسول (عليهم السلام) فأى علاقة لهؤلاء بالتشيع. هذا إذا كان الأمر متعلقا بهؤلاء أما إذا كان متعلقا بأهل القرى الذين يسيئون إلى التشيع بزعمه فهو أنكى، لأن هؤلاء في الأعم الغالب لديهم دين فطري قل أن تجد له نظيرا، وفي نفوسهم هيئة لأهل البيت (عليهم السلام) لا ينافسهم به أحد، وحتى لو صح أنهم يشربون الخمر، فمن المحال أن يتقربوا منه في يوم عاشوراء، سيان في ذلك السنة منهم أو الشيعة، فالسنة من هؤلاء لديهم أيضا هيئة خاصة لأهل البيت (عليهم السلام) خاصة للحسين (عليهم السلام) وأكثر خصوصية للعباس (عليهم السلام).

ثم إذا كان هذا الأمر له ثمة علاقة بالتشيع، فهل أن الإنسان الحكيم حينما يتكلم بالمطلقات يريد الأمر الشائع خصوصا إذا كان المعنى المبادر من لفظه لن يحمل إلا على الأمر الشائع كما هو حال كلامه الأول.

وعلى أي حال فقد كنت على أثر هذه الظلامة التي لحقت بالعراقيين في أعز ما يعتزون به قد كتبت إلى المراجع العظام بشأن ذلك وفي غيرها من الأمور التي ترتبط بعقائد الرجل فيما عرف فيما بعد بالمسائل العراقية، وكان في جملة من كتبت له حامي العقيدة آية لله العظمى المرجع الديني الكبير الشيخ جواد التبريزي النجفي (مد ظله الوارف) وفيما يلي أنقل نص السؤال ورده على جواب المرجع التبريزي: س ١٨: ما رأيكم بمن يقول: ثمة أناس في العراق كانوا يحتفلون في يوم عاشوراء بشرب الخمر، فأى حزن على الحسين (عليه السلام) عندما يصبح الإنسان في غيبوبة، لقد كان البعض يشرب الخمر ليلة العاشر من المحرم من أجل الإحماء.

وحينما رد المرجع التبريزي وبقية المراجع (أيدهم الله تعالى) بما يناسب المقام من الشدة والبراءة من هذا القول، رد الرجل على مجموع الأجوبة بتاريخ ١١ / جمادى الثاني / ١٤١٧ هـ فقال: لم أقصد الشيعة في كلامي الذي حرفه المحرفون!! بل قصدت بعض الناس في شمال العراق من غير الشيعة!! من أهل الفرق الباطلة، وعلى هذا فإن حساب هذا المحرف على ربه يوم القيامة. (أنظر أجوبته على فتاوى المرجع التبريزي في ١١ / جمادى الثاني / ١٤١٧ هـ ص: ١٧).

وهنا تجده يدعي أولا أن كلامه قد حرفه المحرفون، ومن يرجع إلى نص ما هو موجود في منبر السبت وما هو موجود في الاستفتاء لا يعثر على أي فرق على الإطلاق، وتجدد ثانيا يدعي عدم قصده للشيعة في الوقت الذي وجدناه

يتحدث عن المناطق التي تسبب إلى التشيع، فإذا لم يك
يقصد الشيعة فما باله تحدث عن هذه المناطق؟ وإذا كانت
هذه الفرق باطلة فمم الحذر؟!.

وإذا كان هذا القول محرفاً - بناء على أن فرض المحال
ليس بمحال - فما لنا نجد هذا القول يتسرب إلى كتابه رؤي
ومواقف حيث يقول في الجزء الأول منه: (لا يمكنك أن
تشرب الخمر من جهة إحياء الشعائر، من قبل ما كان
يحصل في العراق، حيث كان بعض الناس يحتفلون في
عاشوراء بشرب الخمر مما ينحو بنا على القول أي حزن هو
هذا على الحسين عندما يصبح الإنسان ف غيبوبة). (أنظر
رؤي ومواقف ١ : ١٣٨ الطبعة الأولى - دار الملاك -
بيروت.

ولولا أن الفرصة لا تسع لاستطرد أكثر لأرينا القارئ الكريم
العديد من الأمثلة التي تخرس لها الألسن تعجبا من شدة
التلاعب والمراوغة في الإفصاح عن مكنوناتها.
بعد كل ذلك كيف يمكن محاوره رجل لا إثبات ولا
نفيه نفي، فإن أثبت توقعته رجوعه، وإن تراجع توقعته
رجوعه عن الرجوع!!.

ز - إن علمية التشكيك حتى لو تمت بحجج تبدو
براقة كادعاء الرغبة في التجديد والتطور وما إلى ذلك من
مصطلحات قد تستوي البعض، خصوصا أولئك الذين
يعانون أكثر من وطأة الحضارة الغربي ومفاهيمها، فإن
ذلك لا يخرجها من حاجتها إلى المستند الفكري الذين
يعرب عن صلاحيتها وسلامتها، أما مسألة التجديد تحت
وطأة الفعل الحضاري الغربي، فغن دين الله وأفكاره لا
ينساق وراء ضغوط أعدائه، لكي يرضخ هنا ويخضع
هناك، فإن كان الغرب لا يخجل من أفعاله وأفكاره
وعاداته وتراثه الفلكلوري وأمثال ذلك وهي في عمومها
الغالب مما يندى له جبين العالم خجلا واشمئزازا، فأبي
مبرر يدعونا إلى أن نسايرهم في عدم الخجل من أفعالهم

والخجل من أفكارنا وتراثنا وعاداتنا؟. قد يكون الغرب بتلك العادات والتقاليد أشاد له نمطا حضاريا عززه بتقدم تقني هائل، ولكن هذا لا يمنع من أن يبقى هذا النمط مدانا في أفكاره وأخلاقياته حول طرق جمع الثروة التي أدت إلى ذاك التقدم التقني، وما أصابنا من تخلف وتقهقر قبال حضارة الغرب لا يعني لنا أن نتنكر عن معاييرنا الفكرية، فهذه المعايير هي هويتنا التي نحى بها ونموت من أجلها، إننا قهرنا تقنيا في البداية، وجاء الغرب ليقنعنا بالهزيمة النفسية التي تبيح لنا الهزيمة الفكرية.

إننا أعداء الخطأ أينما كان، وقد حباننا الله بدينه ودين رسوله وآله الميامين لكي نسير بعيدا عن الخطأ، ولهذا فإننا إن وجدنا أفكارنا متطابقة مع ما تعلمناه من هذا الدين اعتبرناه منهاجا فكريا وروحيا وسلوكيا نتعبد به، وإن وجدنا يتنكر لأي شيء من ذلك تنكرنا له كائن من كان قائله ومهما مت إلينا بصلة: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوب الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه

أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون { . (١)

١ - سورة المجادلة: ٢٢ .

الباب الأول
ما هي الولاية التكوينية؟

بسم الله الرحمن الرحيم
قبل أن نتطرق إلى دلائل ثبوت الولاية التكوينية،
لا بد لنا من أن نحدد وبدقة المقصود من الكلمة
مصطلحا ومفهوما، ولا بد في البدء من الإشارة إلى أننا
لسنا في قبالة نص شرعي يحدد الاسم، وإنما جاء الاسم، وإنما جاء الاسم
ليشير - وبإشارة موفقة - إلى مفهوم شرعي تضمنته
العديد من النصوص الشرعية، وبكلمة أخرى أن اسم
الولاية التكوينية لم يرد لا في آية قرآنية ولا في سنة
شريفة، فالنص الريف يخلو من هذه التسمية، ولكن
هذه التسمية استخدمت في وقت متأخر لتشير إلى مفهوم
تداولته العديد من الآيات القرآنية، والنصوص الشريفة،
وبقدر عدم أهمية الاهتمام بمن وضع هذه التسمية من
علماء الكلام من علمائنا الأبرار - قدس الله أنوارهم -
إلا أننا نجد أن من الحق الإشارة إلى أن من وشع

التسمية قد وفق أيما توفيق في الوصف الدقيق للمفهوم،
وهو ما سيتضح لنا بعد قليل إن شاء الله تعالى.

نستفيد من معاجم اللغة وجود عدة معان تنطوي
عليها كلمة (الولي)، وهي بشكل مجمل تدلنا على
المعاني التالية:

الله الولي: أي المتولي لأمر العالم والخلائق
القائم بها، والوالي، مالك الأشياء جميعها المتصرف
فيها. ونقل عن ابن الأثير قوله: أن الولاية تشعر بالتدبير
والقدرة والفعل.

والولي: من يلي أمر الشيء ويقوم على كفايته.
ورجل أولى من رجل بأمر أجدر منه وأحق به
وأحرى.

والولي والمولى: الوريث.

والولاية: السلطة على الشيء، وفلان ولي فلان أي
تسلط عليه وتمكن منه تغلب عليه.

والشيء يلي الشيء فهما متواليان: أي متعاقبان
ومتتابعان، يشير أحدهما خلف الآخر يتبعه ويليه.

والمولى: الدنو والقرب. (١)
ويمكن جمع هذه المعاني في التمكن من الشيء
والتسلط عليه، ولأن السلطة على الشيء تعني القدرة على
كفاية أمره، وأن تتسلط على شيء ويكون أمره بين
يديك، فهو تابع لك ويعقبك، ولهذا فهو دائما قريب
منك ودان إليك.

وباعتبار أن الفعل الكوني - في وجه من وجوهه -
هو تعبير عن إفرازات مبدأ العلية وإطراد قانون العلة
والمعلول في عموم الظاهرة الكونية.
لذا فإن الولاية التكوينية تعني القدرة على التسلط
على الظاهر الكونية، من خلال آلية يفترض أن تتفاعل
مع مكونات الفعل التكويني إن على نحو التسلط عليها،
كما يتسلط الدواء على الداء، وإن على نحو التقرب من
مصدره.

١ - أنظر على سبيل المثال: لسان العرب لابن منظر الإفريقي
١٥: ٤٠٠ - ٤٠٥، وكذا الصحاح للجوهري: ٢٥٢٨ -
٢٥٣١.

وباعتبار أن أحد مكونات الفعل التكويني وهو مبدأ،
من المبادئ التي يمكن اختراقها - كما سيتبين
لنا - فهو بطبيعته إذن قابل فلسفياً لأن يكون خاضعاً لمن
لديه القدرة على إخضاعه، وإلى هذا الأمر يتوجه أمر
الولاية التكوينية التي تتم عبر التسلط على مادة هذا
المبدأ، فمن له الولاية التكوينية يمارس هذه الولاية من
خلال تمتعه بقدرة مفترضة على اختراق نظام العلية،
لكونه - أي هذا النظام - قابلاً للاختراق.
ولكن وبسبب أن المكون الثاني للفعل الكوني،
- وهو الإرادة الإلهية المباشرة - غير قابل للاختراق كما
عبر عن ذلك النص الشريف: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن
يقول له كن فيكون) [يس / ٨٢]، لذا فإن آلية الولاية
هنا مستحيلة - فلسفياً - من خلال التسلط، ولكنها قابلة
وممكنة من خلال التقرب من مصدر هذا المكون،
واستحصال القدرة على ممارسة الولاية منه، وهو ما
عبرت عنه نصوص كثيرة كما في قوله تعالى وهو يخاطب
النبي عيسى (عليه السلام): (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني
فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني
وإذ تخرج الموتى بإذني) [المائدة / ١١٠]، فهنا يشير النص
الشريف إلى وجود قدرة لدى عيسى (ع) على ممارسة

الولاية التكوينية، وهذه القدرة حسب ما يشير الآية السياق قدرة فعلية، وأن إذن الله هنا ليس إذنا إنشائيا، بمعنى أنه ليس إذنا جبريا يمنح في كل مرة يريد عيسى أن يمارس الولاية وفق ما أشارت إليه الآية الكريمة، وفق معادلة لعل ما جاء في الحديث القدسي الشريف يفصح عن أسرارها: (عبدني أطعني تكن مثل تقل للشئ كن فيكون). وأمثال ذلك كثير، وكلها تشير إلى وجود عناية إلهية خاصة بشخص ما تؤهله للتمتع بالولاية على الفعل الكوني، وأن هذه العناية بشكل عام تنشأ من قرب هذا الإنسان من معدن القدرة الإلهية المقدسة. وبناء عليه يتضح لنا المقصود بمفهوم الولاية التكوينية، وقد أضحى هذا المفهوم - ضيقا واتساعا - مورد تجاذب ما بين من تطرق إليها وبين خط مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) كما بين لاحظنا من قبل، وسنعالج في البحث القادم الإمكانية العقلية لحدوث مثل هذا النمط من التفاعل مع الظاهرة الكونية - صغرت أم كبرت - أو لا. وعلى الله الاتكال..

الباب الثاني
أدلة ثبوت
الولاية التكوينية

(١٠١)

إن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية
وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع
ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن
لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل.
الإمام الخميني (قدس سره)
في إثبات وجود الولاية التكوينية يقع الكلام في
مقامين أولهما في إمكان ذلك عقلا، والآخر في تحقق
ذلك الإمكان فليس كل ممكنا قد تحقق، وهنا لدينا
العديد من الأدلة، وسنتحدث هنا عن ثلاثة منها هي دليل
الإمكان العقلي والذي بموجبه سنحاول التوصل إلى أن
نظام العلية ومفرداته ليس بتلك الصرامة بحيث أنه لا
يمكن اختراقه، وليس هو الوحيد في تفسير الفعل
الكوني، وسيعقب الحديث عن الدليل العقلي الدليل
القرآني، وقد أحرناه عن دليل الإمكان العقلي، ليكون
الأول ممهدا لفهم الثاني لدى القراء الذين أخذ منهم
الفكر المادي مأخذه بحيث إنهم بدءوا يستغربون إمكانية

اختراق المادة من قبل عوامل خارجة عن عالمها، أما بالنسبة لمن لم يأخذ العالم المادي بريقه لديه، فإن عسر عليه فهم الدليل الأول فإن الدليل الثاني والثالث - وهو الدليل الروائي - سيعينه على فهمه، أو أنهما سيكفيانه بأمر وجود هذا النمط من الولاية، والدليل الثالث سنخصه للدليل الروائي فيما صح صدوره من قبل المعصوم (عليه السلام) ضمن منهج التشدد السندي، ليس لأن الأحاديث التي لا يقبلها هذا المنهج غير صحيحة الصدور، وإنما لأن هذا المنهج يمثل الحالة الصارمة التي لا تقف بعدها حالة في تمحيص الأحاديث وجرح وتعديل رجال أسانيدها، وفي كل هذه الأدلة سنستعين بنماذج نقدمها للتمثيل فحسب وليس على مستوى الحصر والاستقصاء، وبالله نستعين على أمرنا كله، والحمد لله رب العالمين.

أولاً: دليل الإمكان العقلي

(١٠٥)

في البداية ستكون مهمتنا البحث في الإمكان
الفلسفي والعقلي لعملية التحكم والهيمنة على مبدأ العلة
والمعلول والسبب والمسبب، إذ يتيح لنا إثبات أطراد هذا
الإمكان في حيز معين تعميمه على كل الساحة الكونية،
فوجود هذا الإمكان يعني وجود القابل، (١) وما قبله
شئ، قبله ما يناظره، ويمكننا أن نقوم بعملية البحث
هذه من خلال تحليل الآلية التي يسير وفقها مبدأ العلة
والمعلول، ومحاولة التعرف على ما إذا كان من الممكن

١ - ونعني بذلك أن وجود حيز ما يتفاعل مع قضية ما، إنما
يحكي عن حقيقة وجود القابلية على التفاعل ما بين ذلك
الحيز وهذه القضية، فحينما نقول أن الإنسان الفلاني وصل
إلى النقطة الفلانية إنما نعبر في ذلك عن وجود قابلية لدى
هذا لإنسان الوصول إلى هذه النقطة، والقابل يحتاج دوماً
إلى الفاعل، فمن دون وجود الأعلى يبقى القابل معلقاً، على
عكس الممتنع الذي ينتفي فيه وجود القابل أو الفاعل لذا
يغدو ممتنعاً في صورة من صور الامتناع.

تحقيق اختراق لمسارات هذا المبدأ أو لا، إذ أن إثبات حصول ذلك، يمكننا من القول بأن امتلاك سلطة ما - وهي السلطة التي بموجبها حصل الاختراق الذي نتحدث عنه - يتيح للإنسان أن يتحكم بهذا المبدأ، ويهيمن عليه.

الفعل - أي فعل - لا يأتي من لا شيء، ولا يبرز إلى الوجود بصورة عبثية، وإنما هو مرتبط بمادة هي مصدر وجوده، ولو أردنا أن نحلل هذا الفعل سنجد أنه يأخذ صورته الفعلية في الظاهرة الاجتماعية، والظاهرة الكونية - وفق التصوير القرآني - عبر آيتين: الأولى: هي صورة العلية القائمة على أساس أن الفعل يبرز إلى الوجود ويتحرك فيه عبر نظام من العلل المترابطة التي تتسبب بوجوده. وعلى الرغم من أن الحديث القرآني يطفح بالحديث عن إرجاع أصل هذه العلل إلى الله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى في خصوص الظاهرة الاجتماعية: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا * إلا أن

يشاء الله) (١)، وقوله تعالى: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (٢)، وكذا ما تحدثت عنه الآيات الشريفة في اتساق الظاهرة الفيزيقية - الطبيعية - ضمن سياق مبدأ العلية واطراد هذا المبدأ على كل المجالات كما في قوله تبارك وتعالى: (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون* والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون). (٣) إلا أن هذا الحديث ينبأ أيضا بأن الله قد أولى الإنسان - كنموذج - نمطا من الولاية على هذا الفعل، بحيث يمكن معه أن يقال بأن شيئا من اختيار صورة هذا الفعل قد جعل ما بين يدي هذا الإنسان، وتحت سيطرته، وهذه الولاية منحت إلى (الإنسان - الفرد) كما أشار إلى ذلك النص الشريف: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) [الإنسان / ٣]، وكذا إلى (الإنسان - الجماعة) وهو ما أفصح عنه قوله تبارك وتعالى: (إن الله لا يغير ما

١ - سورة الكهف: ٢٣ - ٢٤.

٢ - سورة الأنفال: ١٧.

٣ - سورة يس: ٣٧ - ٤٠.

بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١).
كل ذلك من دون أن تتخلى الإرادة الإلهية عن
قدراتها الأزلية (٢) في الحد من هذه الولاية متى ما اقتضت
المصالح الإلهية ذلك، وفق المبدأ القرآني: (إنما أمره
إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (٣).
وعلى هذا المقدار من الولاية تعلق الحساب الإلهي
في صورتى الثواب والعقاب الفردي والجماعي، سواء
كان هذا الحساب يأخذ بعده الدنيوي، إن في وراثته
الأرض وإعمارها وهو ما يتبدى واضحاً في الآية القرآنية
الكريمة: (وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) (٤)،
وإن في الهلال والدمار فيها كما أشارت إليه الآية
الكريمة: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها
القول فدمرناها تدميراً). (٥) أو بعده الأخروي المتمثل بنعيم

١ - سورة الرعد: ١١.

٢ - كما هو قول القدرية من المسلمين ممن أوقف القدر، وكما
هو قول اليهود أيضاً ممن عبرت عنه الآية القرآنية الشريفة:
(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان)
[المائدة: ٦٤].

٣ - سورة يس: ٨٢.

٤ - سورة الجن: ١٦.

٥ - سورة الإسراء: ١٦.

الجنة وعذاب النار، وفق ما عبرت عنه الآيتان الشريفتان:
(وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا
يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (١)،
وكذا قوله تبارك وتعالى: (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى
كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا
نستنسخ ما كنتم تعملون). (٢)

وهذه الصورة من الاختيار كما نجدها في الإنسان
نجدها في الجن أيضا باعتبارهم النموذج المختار الثاني
الذي يحدثنا عنه القرآن الكريم.

والثانية: هي صورة الفعل المسير بفعل الكينونة
الإلهية المباشرة المبتني على أساس سلطة الله - جل
شأنه - على مخلوقاته، والقرآن المجيد يطفح بالآيات
الكريمة التي تشير إلى ذلك، بصورة توهم معها أهل
الكلام في المدرسة الجبرية بأن هذا المبدأ هو الأول
والأخير في حركة الفعل الإنساني، ولا أجد ضرورة لذكر
الشاهد القرآني هنا للكثرة القرآنية في هذا المجال من جهة، ولأن
جهة لها قدرة خلق مثل هذا العالم، لهي

١ - سورة الإسراء: ١٣ - ١٤.

٢ - سورة الجاثية: ٢٨ - ٢٩.

أقدر على تصريف شؤونه كيفما شاءت وأنى أرادت،
من جهة ثانية.

ولا نحتاج إلى كثير جهد لمعرفة أن مبدأ القدرة
الإلهية له هيمنة وتسلط على مبدأ العلة والمعلول، مما
ينفي عن مبدأ العلة والمعلول صفة الأزلية (١)، الأمر الذي
يجعل هذا المبدأ قابلاً لكل مواصفات ممكن الوجود في
كونه قابل للاختراق (٢)، ومحض أن يكون قابلاً للاختراق
يفترض وجود المخترق، ولا إشكال في أن القدرة الإلهية
هي المهيمنة على ذلك، ولكننا نلاحظ أن هذه القدرة
حينما منحت الإنسان نمطا من أنماط الولاية على فعله
بحيث يمكنه أن يخرج من إسهار بعض مسارات العلل
ليختار مسارات أخرى، كما نراه حينما يختار جانب
الحركة على الجاذبية، والخصوبة على جانب الجذب،

-
- ١ - لأن هذا المبدأ إن لم يكن عليه هيمنة من جهة أكبر منه
لاستدعى الحال أن يكون غير محتاج، وأن يكون كذلك فإنه
يغدو قديما، وهذا محال.
 - ٢ - لكونه يقبل الهيمنة عليه من قبل جهة أخرى.

والسرور على الحزن، والعافية على البلاء.. وما إلى ذلك، فإن من الطبيعي جدا أن نقول بأن هذا الإنسان - أي إنسان - بما منح أساسا من ولاية وهيمنة على بعض الأشياء، فإنه قد منح أساسا ولاية طبيعية على اختراق عمودي (١) لنظام العلة والمعلول، أي أنه يمتلك القدرة على تغليب بعض روابط العلة على بعضها الآخر لينتخب ما يناسبه من ظاهر كونية، وهذا الأمر يكون في العادة قبل بدء تفاعلات العلية، فمن يريد أن يحصل على مادة كيميائية معينة ككلوريد الصوديوم (الملح) مثلا يمكنه أن يجمع ما بين مادتي الكلور والصوديوم في ظروف حرارية معينة فتنج له ملحاً، غير أن هذا الإنسان حتى وإن وضع أمامه المادتين عينهما، ولكنه رغب في الاستفادة من المادتين لأغراض الحصول على مادة أخرى

١ - الاختراق البشري في حالة حدوثه لن يكون إلا اختراقاً عمودياً، أي أنه اختراق في تراتبيه التأثير، لأن الثابت فلسفياً أن نظام العلة والمعلول - حتى مع حدوث حرق له كوما في المعجزة وما إلى ذلك - لا ينتفي من الوجود، وإنما يمكن تسليط قوانين لها صفة الهيمنة والتسلط أكثر من فعالية العلية التي تحكم ما بين علة ومعلول معينين، كما هو الحال في إمكانية التخلص من الجاذبية الأرضية، بتسليط قانون آخر عليها، كالحركة مثلا.

غير الملح فيجمع الصوديوم مثلا مع الكربون والأوكسجين ليستخرج منها مادة أو أكسيد الصوديوم مثلا، أو يجمع ما بين الأوكسجين والهيدروجين مع مادة الكلور ليحصل في ظروف كهربائية معينة على مادة حامض

الهيدروليك، كما ويمكنه أن يتدخل في معادلات العلية حتى أثناء تفاعل العلة والمعلول ليستحصل معلولا آخر كما لو قام بجمع الكلور مع الصوديوم وأثناء تفاعلها أدخل معهما عنصرا ثالثا كالكالسيوم، عندئذ يمكننا أن نشاهد مادة أخرى هي نتاج المادتين أثناء تفاعلها العلي مع دخول عنصر جديد عليهما، لينتج معلولا جديدا.

إن هذا الأمر يبين لنا عدم حديدية مبدأ العلية في اتجاهه العمودي التراتبي، (١) وقابلية اختراقه من جهة،

١ - نقصد بالاتجاه العمودي للعلل هي مجموعة العلل التي ترجع إلى أصل واحد، وتقف جميعها بنفس النسبة تجاه ما ترجع إليه، غاية ما هناك أن أحدها قد يتقدم طوليا على الآخر بسبب تحقق وجود القابل والفاعل، فيمكن الآخر، وهذا ما عنيناه بالترايبية بين العلل، أي أن هناك علة أقوى من أخرى، وعلى عكسها الاتجاه الأفقي الذي يعني وجود مجموعة من العلل لا ترجع إلى أصل واحد، وإنما تعود إلى علل متعددة، وهي مستحيلة لأنها تستلزم وجود أكثر من علة أولى، مما يستلزم الشرك في الخلق.

ويبين لنا من جهة أخرى مصداقية المبدأ الفلسفي المعروف: (إن كل شيء هو كل شيء) بمعنى أننا شاهدنا قدرة الإنسان على الانتخاب ما بين مواد العلل، وهذه القدرة كلما زادت كلما أتاحت للإنسان قدرة أكبر على الحصول على معاليل إضافية، غير إن هذه القدرة تحكي في جانب آخر قدرة التحكم في نتاج أي مادة طالما اقتربنا من علتها الأولى، الأمر الذي يعني أن الإنسان قادر - كلما اقترب من المعدن الأصلي للأشياء - أن يبرز أي مادة، فلو قدرنا أننا دخلنا مختبرا كيميائيا يحتوي شتى المواد الكيميائية، فإن من الطبيعي بمكان أن نتصور خياراتنا الموسعة في انتخاب أي شيء تتيحه هذه المواد، وكلما اتسعت مقدراتنا المعرفية عن خصائص هذه الأشياء وميزاتها، كلما توسعت لدينا قدرة الانتخاب. ولو افترضنا قدرة علمية وتقنية أكبر من لك، فهذا الأمر هو الآخر في معرض الإطراد (١)، وهذا هو القانون الإلهي المستخلص من معادلة الخلق، وكيف أن كل هذه المخلوقات كانت نتاج علة أولى، إذ بالقرب منها يغدو كل شيء قابل لأن يكون أي شيء.

١ - أي أنه سيتيح لنا إمكانية أكبر على توسيع رقعة اختياراتنا.

بعد هذا الاستطراد، نضع أمامنا هذا الافتراض العلمي، وهو: إذا ما كانت عملية اختراق نظام العلية - بالصورة التي عرضنا لها - جائزة علميا وفلسفيا في أشياء محددة من الظاهر الكونية نتيجة تسليط علة أكبر تجعل النظام ينحاز إلى المعادلة الأقوى، فهل يا ترى يمكن للإنسان دائما أن يتحكم بمعادلات العلة والمعلول؟.

إن الإجابة المنطقية هي الإيجاب لأن حصول شيء ما، نتيجة أي ظرف كان، يجعل هذه الشيء في حدود الإمكان، وطالما أن الإمكان الفلسفي مسافته بين الوجود والعدم متساوية (١)، لذا فإن قدرة الإنسان البسيطة على الاختراق، يمكن أن تخرج من طور البساطة، إلى طور الاتساع، لأنه بمجرد ما كان قادرا على اختراق ما، فإنه يمكن أن يطور علمية الاختراق هذه نوعيا، ويحولها من الكم البسيط إلى النوع المعقد، وهذا الأمر هو بعينه ما يطرحه لنا القرآن الشريف على شكل قانون كوني يسميه

١ - بمعنى أن كل ممكن بما أنه ليس واجبا ليصبح وجوده ضروريا، وليس مستحيلا ليصبح عدمه ضروريا، فإن المسافة الواصلة بينه وبين الوجود، وكذا بينه وبين العدم، تبقى متساوية.

بالسلطان وفق قوله تعالى (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) [الرحمن / ٣٣]، حيث يطرح القرآن علمية الاختراق الضخمة المفترضة هنا لقانون الجاذبية - وهي هنا للتمثيل وليس للحصر - على شكل إمكان كوني، وهذا الإمكان موضوع تحت تصرف الثقيلين من الجن والإنس، ومعلوم أن هذه الإمكانية الممنوحة لهين الثقيلين، إنما منحت فلسبب تكويني مرتبط مرة بقابلية الظاهرة الكونية للاختراق، لأنها لو لم تكن تتميز بهذه القابلية لكانت علمية خرق أقطار السماوات والأرض عملية مستحيلة، ولهذا لم يكن القرآن ليتحدث عنها (١)، وأخرى مرتبط بكونهما أعطوا سلفاً نحواً من الولاية في أفعالهما (٢)، وهو نفس المبدأ الذي جعل خطاب العبادة متوجه إليهما فحسب، دون سائر المخلوقات، وفق ما أشارت إليه الآية الكريمة: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات / ٥٦]، وهذه الولاية في الوقت الذي مكنتهما من الاختيار ما بين العلل وموادها، هي نفسها التي تمنحهما القدرة على مضاعفة وتطوير هذا الاختيار، نتيجة

-
- ١ - وهذا الأمر هو الذي سميناه آنفاً بالقابل.
٢ - وهو الذي سميناه بالفاعل.

القدرات التي يتيحها العقل الممنوح لهما في التفريق المزج ما بين الأشياء، وكذا في التفريق ما بينها، خصوصا إذا ما تعرفنا على حقيقة أن كل القوانين الطبيعية كقوانين الحرارة والحركة والجاذبية والمغناطيسية وما إلى ذلك تقف من حيث الأصل في عرض واحد، وطبيعة الظرف الفيزيائي هو الذي يتيح لها أن تتقدم أو تتأخر، وتتغلب أو تندحر.. وهكذا.

ولربما نستفيد من القرآن أن هذا الإمكان يمكن للإنسان أن يطاله في معظم الظاهر الكونية أو قل كلها، وذلك من خلال ما يتبدى لنا من قوله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنا وأشفقن منها وحملها الإنسان) [الأحزاب / ٧٢]، إذ أن منطق الأمانة يفترض تسلسط الإنسان على ما ائتمن عليه، وتمكنه منه، ولربما في هذه الآية نلمس دلالة أخرى وهي أن الإنسان بقدر ما يلتزم بمؤديات الأمانة فإن الإمكان الذي نتحدث عنه يصبح متاحا، والعكس بالعكس، ولربما نلمس في قوله تعالى: (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) [لقمان / ٣٤] إن ما خرج عن هذه المستثنيات يمكن أن يدخل في حيز العلم الممكن الحصول عليه، رغم وجود دلالات أخرى تشير إلى أن

هذه المستثنيات يمكن أن يطالها عالم الإمكان إن شاء الله ذلك.

إن هذه المقولة تجعلنا في قبالة حقيقة موضوعية هي: أن ما نراه خارقاً للعادة في فعل بعض الناس من أصحاب المواقع العلمية أو الروحية الخاصة، ليس من الضرورة أن يدخل في باب الإعجاز المبني على مقولة اختراق النظام الكوني العام، وإنما قد يكون استفادة من قوانين الإمكان الفلسفي الذي تحدثنا عنه، بمعنى أنها قد تكون عملية تطبيقية لقوانين طبيعية لها طبيعة السلطان الأقوى على السلسلة المألوفة لحركة العلة والمعلول (١)، مثلها في ذلك مثل تصورات مسلمي العصور الأولى تجاه آية النفوذ من أقطار السماوات والأرض، وتصوراتنا الحالية عن ذلك، ففي عصرنا نعتبر

١ - أنظر للتفصيل تعليقنا على كتاب معجزات النبي (ص) في كتاب بحار الأنوار، طبعة دار التعارف للمطبوعات، وكذا تعليقنا على البحوث القرآنية للسيد الشهيد الصدر (رحمه الله) والتي طبعت تحت عنوان: التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية. الدار العالمية - بيروت.

العملية نتاج طبيعي للإمكانية التي وضعها بين أيدينا
التقدم التقني، ولا نجد في أنفسنا أدنى ريب في أن
العملية تتم من دون أن تخرق نظام العلية أفقياً، وإنما
تمت من خلال خرق عمودي لمسارات العلل وتغليب علة
على أخرى، بينما لو أتيح لأولئك المسلمين أن يعرفوا
بالذي يجري حالياً لاعتبروا عملية غزو الفضاء - مثلاً
معجزة تقف دونها بقية المعاجز!!.

وإذا ما أرجعنا ذلك إلى الطبيعة التقنية المتفوقة
التي بلغها العلم الحديث، فمن الطبيعي أن نقول بأن
العلم الذي يوصل إلى هذا التقدم يمكن لكل إنسان أن
يحصل عليه إن امتلك الأسباب الخاصة بامتلاكه (١)، وإذا
ضممنا إليه حقيقة أن ما وضلت إليه التقنية المعاصرة
تبقى قاصرة عن استيفاء كل المواد العلمية الموجودة في
هذه الكون، حيث لا زلنا كل يوم نسمع باكتشاف علمي
جديد، مما يعني أن ما لم يكتشف بعد هو أكبر بكثير مما
تمت اكتشافه.

إن ذلك كله يرينا عدم ممانعة نظام العلية من حيث

١ - فهذه الأسباب كانت متاحة منذ الأزل، إنما هي قدرات
الإنسان التي لم تكتشف هذا الأمر.

المبدأ لخضوعه لعملية الاختراق وهو الأمر المناظر للولاية التكوينية، إذ ليس هناك من يقول من أنصار الولاية التكوينية، إنها تلغي نظام العلية كما توهمه بعضهم، إذ أن نظام العلية من حيث الوجود نظام لا ينفك عن الوجود ما دامت السماوات والأرض، وهذا ما عنيانا القول به بعدم إمكانية الاختراق الأفقي لهذا النظام، وإنما تتم العملية من خلال إعادة ترابعية العلل بشكل عمودي صعودا ونزولا وتقديما وتأخيرا.

وهذا الأمر ينسجم مع المقولة القرآنية التي ترى أن الأشياء مترابطة مع بعضها، فالاختراق العمودي يبقى لحدث الولاية التكوينية، ترابطه مع سائر الأشياء، بينما لو قلنا بالاختراق الأفقي لأمكن القول بأن الترابط بين الأشياء سينقطع، لأنه يحتاج إلى علة أولى من غير سنخ العلة الأولى التي أوجدت التفاعل العلي العمودي، وأن الحديث سوف يحتاج إلى عملية تفسير الوجود، وهو أمر لا يقول بإمكان حدوثه أحد.

* * *

هذا على صعيد نظام العلية باعتباره أحد الوجهين المكونين للظاهرة الكونية، أما على صعيد المكون الثاني

وهو تدخل القدرة الإلهية المباشرة، فهو الآخر لا يمنع من وجود هذا النحو من الولاية.
إذ من الممكن لهذه القدرة المقدسة أن تضع بعض مفاتيحها بيد من تشاء وتهبه لمن تريد وفق مصلحة ترتئها، وهذا من حيث الإمكان العقلي ممكن نتيجة لما نألفه من الممارسة الإلهية مع هذه الخليقة، وهو أمر نحس به بشكل طبيعي، فإذا كانت قدراتنا في الاختيار هي جعلاً إلهياً لنا، وهذا الجعل يمثل ولاية واضحة على مقدار من الظاهر الكونية، ثبت أن لا ممانعة إلهية - من حيث المبتدأ - على منح نمط من أنماط الولاية لأحد من الناس أو لمجموعة منهم، كأن تكون على نحو التقدير والتمييز لهؤلاء، أو على نحو الإثتمان، خصوصاً وأنا نجد أن القدرة الإلهية سبق لها وأن أوكلت شؤوننا من هذه الولاية إلى عناصر متعددة، كأن تكون طبيعية كما في ولاية العلل على بعضها، كأن تبخر النار الماء، أو يطفئ الماء النار، أو يزيل الدواء الداء، أو أن تعمل الجبال كرواسي في الأرض، أو في تخصيص عمل الملائكة، فيكون هذا ملك للموت، وذلك ملك يتوسط ما بين الله وأنبيائه، وآخر خازن للجنة، ورابع خازن للنار، وخامس للنفخ في الصور، وسادس للعذاب، وسابع للرزق وما إلى ذلك، فهذا بمجموعه يجعل إمكانية الإيلاء والجعل

الإلهي قائمة. (١)

وليس ثمة محذور عقلائي من وجود هذا الجعل، ففي العادة يمكننا أن نفكر ببعض المحاذير والموانع التي تمنع من هذا الجعل، كأن يقال بأن المجعول له يمكن أن يسئ التصرف بما جعل له، أو أن تؤدي طبيعة الاستفادة إلى تداخل في مسيرة النظام العام، فيؤدي ذلك إلى اضطراب المسيرة الكونية، أو أن من جعلت الولاية له لا يراعي حدود الأمانة ومقتضياتها، أو أن يؤدي ذلك إلى وهم يخدش بمسار التوحيد الإلهي، حيث يمكن للعمل الخارق أن يوهم المجعول له، أو الرائي لتصرفاته الولايتية بأن له ندية ونظرانية مع القدرة الإلهية أو ما شاكل.

وهذا بمجموعه مردود، مرة لمواصفات الجاعل - وهو الله جل شأنه -، وأخرى لمواصفات المجعول له - وهو الإنسان -، ولربما لمواصفات المادة المجعولة ثالثا.

إذ حاشى لله أن تكون إرادته وقراراته تتم على التخمين والظن، إذ أن هذه الأمور من شأنيات البشر أما

١ - أنظر حديثنا عن ذلك في مباحث الدليل القرآني.

الله فهو العليم الحكيم الخبير، يعلم لمن يولي هذه الأمانة، وخبير في جعلها لمن يرى فيه أهلية النوء بحملها، وحكيم في وضع هذا الأمر في محله، خصوصا وأن الآيات القرآنية التي تحدثت عن عمليات إيلاء هذه الولاية حفلت بتعليق ذلك المشيئة الإلهية، ومفروغ عن أن هذه المشيئة هي عين الحكمة، لذا حاشى لله أن يهب هذه الولاية لمن يمكن أن يسئ رعايتها (١)، وهي على أي حال ولاية في كنف ولاية الله، وتابعة لها، لذا فالحديث عن الإمكانيات التي افترضوها معطلة تماما، حتى وإن افترضنا جدلا بإمكانية الانحراف. هذا من جهة الجاعل، إما من جهة المجعول لله، فهو في المصاف الأول النبي الأكرم (ص)، وسائر الأنبياء والأئمة - صلوات الله عليهم أجمعين - وهؤلاء كلهم لا يمكن أن يرد عليهم ما أشاروا إليه، - إذ لو كانوا غير جديرين بهذا الأمر، فهم من باب أولى غير جديرين بالنبوة والإمامة، لأن مرتبة الولاية التكوينية - بمقدارها -

١ - حديثنا هنا عن الولاية الكونية المطلقة والمجعولة لسيدنا ونبينا محمد - عليه أفضل صلوات الله وسلامه - وكذا للأئمة (عليهم السلام)، أو ما دونها بدرجة كتلك الممنوحة لسائر الأنبياء والأوصياء والملائكة (عليهم أفضل الصلاة والسلام).

دون مرتبة النبوة والإمامة - بمقدارها - (١) بما لا يمكن المقايسة بينهما، وإذا كان الله قد اشترط أن لا ينال عهده الظالمون، إذ أن ذلك يشترط فيهم العصمة، فمن الطبيعي إذ أن ما أشكلوا عليه باطل..!!

ولربما نفهم من الآية الكريمة: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) (٢) إن هناك خصائص مرتبطة بطبيعة مادة الجعل (٣)، بحيث أن سنخيتها لا تنسجم مع آية خيانة لما أوجب مجعوليتها، الأمر الذي يجعلها غير قابلة للتنفيذ إن حصل ما لا يتناسب وهذا الجعل، والله العالم. أما من جهة الوهم الذي قد ينشأ في ذهن الرائي والمعاش لحدث الولاية التكوينية، مما قد يؤثر سلباً

١ - قولنا هنا وهناك بمقدارها تبعاً لمنزلة من جعلت لهذه المنازل المقدسة.

٢ - الأعراف: ١٧٥.

٣ - لا بد من أن نلفت الانتباه هنا إلى أن مادة الجعل هنا ليست كبقية المواد، وإنما هي شأن روحي، وهذا الشأن متعلق بمقام روحي، ولهذا فإن الارتباط ما بين المقام والجعل كالنسبة الطردية كلما زاد الأول زاد الثاني وكلما قل الأول قل الثاني.

على مسار التوحيد أو في نشأة الغلاة - كما يدعي البعض -، فهو كلام يمكن إيراده مع غياب الحرص الإلهي وحرص المتمتع بهذه الولاية على إخفاء بشريته، أما مع انتفاء ذلك فلا مبرر لهذا الحذر، إذ من الواضح أن القرآن الكريم وقف بكل حزم قبالة هذا الوهم، فأحد أولاه على تعليق هذه الولاية على الله - جل وتعالى - ثم عضدها بالتأكيد على بشرية الرسول بمعنى أنه ركز كثيرا على سلب الاستقلالية من أي بشر ثم جعل الولاية الممنوحة بالتبع لمطلق الولاية الإلهية لا أنها مستقلة عنها، كما يتجلى ذلك في العديد من الآيات القرآنية ولعل أبرزها قوله تعالى فيما حكاه في قصة عيسى بن مريم (عليه السلام) فبعد أن سرد جملة من ممارسات النبي عيسى (عليه السلام) في الولاية قال: (وإذ قال يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب) [المائدة / ١١٦] أو قوله عن الرسول (ص): (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان

ربي هل كنت إلا بشرا رسولا [الإسراء / ٩٠ - ٩٣] بكل
توهم معه البعض أن التركيز على بشرية الرسول هو دليل
على انتفاء هذه الولاية (١)، ولكن هذا التركيز ينبغي أن
يوضع في موضعه الطبيعي - وهو نفي الاستقلالية ليس
إلا - وبغير ذلك فعلى هذا (البعض) أن يتمحل كثيرا
ويجهد نفسه في تطويع عشرات الآيات القرآنية قسرا، كي
يبعدها عن ظهورها الواضح في حديثها عن الولاية
التكوينية، لا سيما وأن الآيات التي تتحدث عن وجودها
هي أوضح من الشمس في رابعة النهار كما سيتضح فيما
بعد.
* * *

يبقى أمر آخر وهو إن الله - جل وعلا - حينما
أولى الأمانة إلى الإنسان، وهذه الأمانة ضمن مفهومنا
- أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) - تنقسم إلى عامة

١ - أنظر: صورة النبي محمد (ص) في القرآن الكريم، مصدر
سابق.. ص ٧١ - ٧٢.

وخاصة، غير أن ذلك العام هو بالتبع لهذا الخاص، فالعامة لعامة الناس، والخاصة لأكثرهم أمانة وأجرهم بحملها وهم الأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، ولا بد للمؤمن أن يضع كل مكنونات وأسرار هذه الأمانة بيد من ائتمنه عليها، كي تتم عملية التسليم بصورة عادلة وطبيعية، وهذا ما يقتضي وجود ولاية للاحتفاظ بهذه الأمانة، وأن تحتفظ بشئ وتحافظ عليه، فأنت أكبر منه وتملك بيدك مقاديره بمقدار ما أتاحه لك من ائتمنك عليه، وهذا الأمر بحد ذاته يفسر لنا المبدأ الذي يتكلم عنه الحديث القدسي: (عبدني أطعني تكن مثلي تقل للشئ كن فيكون)، فهذا الحديث يلتقي مع مفهوم الآية، إذ من الصحيح أن الأنبياء تسلموا هذه الأمانة وسيكونون المصاديق العملية التي تحافظ على هذه الأمانة، إلا أن سلوك الأنبياء هذا هو أنموذج لما ينبغي أن يسير عليه الإنسان، لذا فهو كلما اقترب من درجتهم - بطاعة الله - كلما كان مؤهلاً لحفظ الأمانة، وكلما كبر في هذا المجال، كلما منح قدرة على التصرف بأسرار هذه الولاية.

ويمكن لنا أن نلمس في الآية القرآنية: (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء

ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (١) ما يضيفي على ما أشرنا إليه بعدا تأكيدا، فعملية الخلق هنا بكل تفاصيلها الكبيرة والصغيرة عللت بعلة البلاء من أجل وجود أحسن العاملين، كما تكشف (لام التعليل) الموجودة في كلمة (ليبلوكم)، وتعليل عملية الخلق بوجود أحسن العاملين، يقتضي في المقام الأول أن عملية تسخير السماوات والأرض الممنوحة للإنسان وفق مفاد الآيتين القرآنيتين: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهره وباطنه ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) (٢) وقوله تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) (٣) ستكون مقترنة بجهة أحسن العاملين، وسائرة بيدها، أو على أقل التقادير فإن التعرف على أسرار التسخير ستكون في حدود الإمكان (٤)، ومن الطبيعي أن التعرف على مكنونات

١ - هود: ٧.

٢ - لقمان: ٢٠.

٣ - الجاثية: ١٣.

٤ - يلحظ بدقة قوله تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) ومكان جميعا من قوله السماوات والأرض، مما يعني أن التسخير المتحدث عنه شامل لكل ذرات الوجود، فلا تغفل!.

وآليات هذه المخلوقات، ومن ثم القدرة على التصرف فيها ستكون من بديهيات عملية التسخير هذه. هذا من جهة، وتقتضي في المقام الثاني أن عدم وجود أحسن العاملين، يقتضي انتفاء الهدف من وجود هذه الخليقة (١)، وكلا الأمرين من أسس الولاية التكوينية، فبمقتضى المقام الأول تصبح جهة (أحسن العاملين) قادرة على التصرف بالظاهرة الكونية أنى شاءت، وبمقتضى المقام الثاني نفهم تعلق الوجود الكوني على وجود جهة (أحسن العاملين)، وبغض النظر عن كون هذه الجهة (٢)، إلا أنه من الواضح أن هذا الحديث يؤكد إمكانية وجود الجهة - بغض النظر عن هويتها - التي يمكن أن تمنح ولاية واسعة في التصرف بالظواهر الكونية إلى الدرجة التي يعلق القرآن الكريم وجود الكون

١ - تحدثنا عن ذلك مفصلاً في مبحث العصمة ضمن ردودنا على شبهة أحمد الكاتب ومحمد حسين فضل الله حول عدم الترابط ما بين إصلاح العالم والعصمة، المطروح في كتاب (تطور الفكر السياسي الشيعي) ومقالة فضل الله: (مع الشيخ المفيد في تصحيح الإعتقاد) المنشور في مجلة الفكر الجديد.

٢ - سنتحدث عنها في الأسطر القادمة إن شاء الله.

بكل ما فيه على وجودها، وهذا مفاد الكثير من الآيات
القرآنية والروايات الشريفة كما سنشير إليه عما قريب إن
شاء الله تعالى.

ترى في قبال كل هذه الحقائق العملية الواضحة
ماذا لو حصل عروج روعي متميز من إنسان الأرض لرب
السماء، وقدر لهذا الإنسان أن يهبه الله جل جلاله التعرف
على مكونات هذه الطبيعة الزاخرة، ويضع ما بين يديه
مفاتيح أغاز العالم وأسراره؟.

ألا يمكن لهذا الإنسان أن يمارس ولاية على
الحدث التكويني بالطريقة التي يراها مناسبة؟ فيغلب قانوننا
على آخر، ويستنفر إمكانات قانونية كونية على أخرى
فيقدم بالظاهر أو يأخرها بالشكل الذي يحكي لنا في
المحصلة عن تحكم فيها وهيمنة عليها..

من الواضح أن لا مانع على مستوى الإمكان
الفلسفي والعقلي الإسلامي، وسنرى أن هذا الأمر لم
يطرحه القرآن على مستوى التنظير المجرد، وإنما تحدث
عن مصاديقه الشاملة وبصورة جلية بقوله سبحانه وتعالى:

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (١).

ونحتاج من أجل أن نكسي هذه القضية ما يناسبه من المصدقية إلى شواهد ربانية، ودلائل إلهية، ولا نعثر على دليل لذلك أفضل من القرآن الكريم، وهذا ما سيكون موضوع الحديث القادم إن شاء الله تعالى.

١ - المائدة: ٥٥.

ثانيا: الدليل القرآني

(١٣٣)

بين يدي الدليل القرآني
لا بد من التنبيه في البدء إلى حقيقة أن أمر الولاية
التكوينية هو أمر يخرج عن دائرة العقل المادي، ولهذا إذا
أردنا أن نبحت هذا الأمر وفق مقاييس هذا العقل وآلياته،
فإننا لن نجد شيئاً يستحق الإثبات، ومثل الولاية التكوينية
مثل الكثير من المفاهيم الإسلامية بما فيها القرآن الكريم،
الذي إن لوحظ ضمن معايير العقل المادي البحث فإن
الكثير من مفرداته تصبح بعيدة عن دائرة المعقول المادي،
أو أن تفسير بتفسيرات بعيدة عن مفاهيم القرآن كالسحر
وما إلى ذلك، فما معنى أن يخلق آدم (عليه السلام) من الطين،
أو أن يضرب موسى (عليه السلام) الحجر فينبجس منها اثنتا
عشرة عيناً، أو أن يلقي عصاه فتقلب حية تسعى، وما
معنى أن تخرج يده بيضاء تبهر عيون الناظرين، أو يضرب

البحر فينشق له ولأصحابه عن أرض يابسة، ثم يضربه
أخرى فيرتد ليطبق على فرعون وقومه، أو أن يولد
عيسى (عليه السلام) بنظام إيلاد غير نظام الإيلاد المعتاد، أو أن
يحيى عيسى (عليه السلام) الموتى، أو يبرء الأكمه والأبرص، أو
ينزل مائدة من السماء، أو أن يفعل داود وسليمان (عليهما السلام)
أفاعيلهما من تكليم الحيوانات وتسيير الرياح وطي
الأرض وما إلى ذلك، أو أن تتحول النار بردا وسلاما
على إبراهيم (عليه السلام)، أو أن يسري بمحمد (ص) من
الحجاز إلى القدس ومن ثم يعرج به إلى السماء، وأمثال
ذلك مما يكثر انتشاره والحديث عنه في مطاوي القرآن
الكريم.

وهذا ما يدعونا إلى أن نستبدل آليات العقل المادي
بآليات الفهم القرآني الذي جعل الإيمان بوجود العالم
الغيبى، من أولى المسلمات العقلية حتى جعلها من أولى
صفات المتقين كما هو واضح من قوله تعالى: (ذلك
الكتب لا ريب فيه هدى للمتقين* الذين يؤمنون بالغيب
ويقومون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون). (١)
ومن يلتفت إلى القرآن وطريقة حديثه عن العلل

المادية والعلل الأخرى الكامنة في سر الغيب يجد أنه يجعل علل العالم الغيب، أقوى بكثير من علل العالم المادي، بما لا يمكن المقايسة بينهما، بحيث أنه يعطيها القدرة على إبطال كل مفاعيل العلل المادية، فانظر إلى الجبل الذي يتحرك ليطير فوق رؤوس أصحاب موسى (عليهم السلام)، وإلى الطير التي يقطعهن إبراهيم (عليه السلام) وينثر أشلائهن فوق قمم أربعة أجبل، فيناديهن فيأتين سعيا، وإلى الشجرة التي تتكلم، وإلى البقرة المذبوحة التي يضرب جسد الميت بها فيحيى، وإلى عرش بلقيس الذي ينقل من مكانه في اليمن إلى مكان سليمان (عليه السلام) في الشام في عملية ينعدم فيها الزمن، وإلى محمد (ص) الذي يرقى إلى حيث ينعدم المكان فيصبح على قاب قوسين أو أدنى أو إلى الجبل الذي يتصدع من خشية القرآن، والقمر الذي ينشق، والقرآن الذي تحل فيه علة الشفاء من المرض.

إن كل ذلك يفضي بنا إلى حقيقة قرآنية صارخة نجدها مطبوعة في كل مكان من أرجاء القرآن، وهي أن عالم الملكوت الإلهي عالم لا ينحصر على العالم المادي، بل إن العالم المادي هو الأضعف من بين بقية العوالم الأخرى التي يتبين أنها تتفاعل بنظام عليا غير نظامنا، ومع هذا النظام تستحيل العلل المادية إلى علل ضعيفة،

لا تقوى مجابهة علل ذلك العالم بشكل تتحول معه
صيحة ذلك العالم إلى عنصر فناء شامل لعالمنا المادي.
إن ذلك ينبؤنا بأن ثمة علل على مقربة منا ليست
من سنخ العلل المادية يمكن أن يكون لها تأثير الهيمنة
والسيطرة على العلل التي تحكم عالماً، غاية ما في الأمر
أننا لا نملك قدرة التحكم بهذه العلل، لأننا لا نعرفها،
ومثلها في ذلك مثل من يرى أن الوجود تهيمن عليه
قوانين المغناطيسية والجاذبية الأرضية - فرضاً - ولكنه
وبطريقة ما حينما يفعل قوانين الكهروطيسية النووية يجد
أن مفاعيل قوانين المغناطيسية والجاذبية قد تلاشت بحيث
أنها أصبحت أسيرة مفاعيل القوانين الجديدة، وهذا الأمر
يقودنا إلى هذه الحقيقة: وهي أن عدم رؤية الشيء لا
تعني نكران وجود هذا الشيء، فقوانين الكهروطيسية
النووية كانت وما زالت تعيش الوجود إلا أنها كانت كامنة
على مقربة منا، ولا يعني اكتشافنا إياها أنها كانت غير
موجودة وعملية الاكتشاف هي التي أوجدتها، بل تدلل
على أننا كنا جاهلين بوجودها رغم وجودها في عالمنا
المادي، ومثلما أن زوال تفعيل قوانين الكهروطيسية يعني
رجوع تأثير قوانين الجاذبية وما إلى ذلك بمعنى أنه لم
يفنّها، وهذا ما عنيناه بالاختراق العمودي الطولي، كذلك
قوانين العالم الآخر، فهي حينما تلغي تأثير العلل

المادية لا تنشأ خرقاً أفقياً بحيث تحتاج إلى نفي علل العالم المادي، لتحل محلها عللاً آخراً، وإنما تتدخل طولياً عبر تعطيل دور العلل المادية، حتى إذا ما زال تأثير قوانين العالم الآخر رجوع تأثير العلل المادية إلى سابق عهده وأوانه، ولعل هذه الأمر هو ما توضحه الآية الكريمة: (وقبل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوتت الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) (١) فبعد حصول الإعجاز وانتهاء أغراضه بواسطة العلل الغيبية، عادت علل العالم المادي إلى سابق عهد عملها. ويظهر من خلال جملة من الآيات القرآنية أن العوالم (٢) من وجهة نظر القرآن هي ثلاثة، وفي كل عالم من هذه العوالم نظام عليّة غيره الذي في العالم الآخر، وهذه العوالم هي:

أ - العالم المادي: وهذا العالم هو العالم الذي نحياه، ونظام العلية فيه هو ما نألفه.

١ - هود: ٤٤.

٢ - ليس المقصود هنا بالعوالم هو كل ما أشار إليه القرآن في مجال الحديث عن ما يراه من عوالم مادية وغيبية، وإنما المراد هنا هو حصر ما يتعلق بموضوعنا هنا، وقد أدخلنا الملائكة بطبيعة الحال ضمن عالم الملكوت.

ب - عالم الجن: وهذا العالم تحدث عنه القرآن الكريم في مواضع متعددة ومن خلاله نجد أن سنخية علله تغاير التي في عالمنا المادي، ونظام الخلقة غير ما عالمنا، فهم مخلوقات خلقت من مارج من نار، بمعنى أنها قد تكون لها لطافة (١) النار، ومن خلال الوصف القرآني فإن هذه المخلوقات - وإبليس من بينها - تتمتع بمزايا تتفوق من بعض الجهات على مزايانا في عالمنا المادي، كأن تكون قادرة على التسلسل إلى النفس الإنسانية لتوسوس لها وتمنيها، وإن تكون قادة على التصرف مع مسائل الزمان والمكان بقدرات أكبر من القدرات الإنسانية، كما توحى إليه الآية الكريمة في قصة عرش بلقيس (قال عفريت من الجن أنا آتية قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين) (٢)، وهكذا بقية ما تصفه العديد من الآيات والروايات المعنية بالحديث عنها.

ج - عالم الملكوت: وهو العالم الذي له مواصفات تختلف كلية عن مواصفات العالم المادي، وهو الذي يكون ساحة عمل الولاية التكوينية، وسيأتي تبيان بعض خصائصه في متون الحديث.

١ - اللطيف: الدقيق.

٢ - النمل: ٣٩.

ويمكننا ملاحظة أن بعض علل العالمين الأول والثاني لا تختلف في الشكل فقط، وإنما تختلف أيضا في المضمون، فلربما نجد بعض علل العالم الأول أضعف منها في العالم الثاني غير أن بعض علل العالم الأول أقوى منها في العالم الثاني وهكذا رغم أنها قد تتحد في جملة من العلل حيث المضمون كما هو في شؤون الحيز والحركة والسكون وما يشبهه غير أن علل العالم الثالث هي أقوى العلل، بحيث يمكن أن نجد معها انعدام الزمان والمكان، وانعدام قانون الكائن الحي والجماد، وما إلى ذلك

ومن خلال جملة من الآيات القرآنية يمكننا أن نتفهم أن الإنسان، أي إنسان، يمكن له أن يطلع على ما في العالمين، بل والتصرف بمقاديرهما، وذلك من خلال تخطي عتبة معينة من عتبات المعرفة الروحية مع فرق بين الاثنين، ففي مسألة عالم الجن يبدو أن الأمر متاح دون ضرورة لتدخل اللطف الإلهي، وهذا ما يشير إليه تسخير سليمان (عليه السلام) للجن، وكذا ما تشير إليه الآية الكريمة (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) (١)، أما بالنسبة لعالم الملكوت، فإن الظاهر أن ثمة

١ - الجن: ٦.

منزلة روحية ينبغي عروج الروح إليها كي يمكن خوض عبابه، وهذه المنزلة لها سلم تصاعدي وبالعكس، فالآية الكريمة التي تتحدث عن قصة بلعم بن باعوراء، تشير إلى أن بلعم هذا سبق له أن رقى روحياً إلى هذه المنزلة ولكنه سقط منها (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه فانسلك منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) (١) كما يظهر التمعن فيها، فالانسلاخ من آيات الله يشير إلى أنه وصل إلى منزلة تمكن فيها من أن يحصل على معين من لطف الله (آتيناه آياتنا) ولكنه خرج عن هذه المنزلة فأتاح للشيطان أن يغويه، وربما نجد في الآية نحو دلالة على أن تدخل الشيطان الإغوائي، لا يبقى إذا ما اجتاز الإنسان عتبة هذه المنزلة، أو لربما يراد أن يقال أن العروج إلى هذه المنزلة يتم في مراحل الأولى من خلال التحرر من إغواء الشيطان بحيث أنك ترقى إلى درجة لا وجود لإغواء الشيطان فيها. (٢)

١ - الأعراف: ١٧٥.

٢ - وهذا ما يستتبع القول بأن انحدار الإنسان في مهاوي الضلال ليس بسببه الشيطان فحسب، بل تدخل أهواء النفس وتعللاتها من غرور وعجب وكسل وما إلى ذلك، في جملة أسباب الضلال، وهي ذات الأمور التي أسقطت إبليس في مهاوي المعصية، فمنطوق الآية يوحي أن بلعم بن باعوراء قد وصل إلى الدرجة التي تلخص فيها من إغواء الشيطان، بحيث أن هذا الإغواء لا تتحدث عنه الآية إلا بعد أن ينسلخ من هذه الدرجة فيجد على أعتاب الانسلاخ حضور الشيطان وتتبعه له.

وهذا ما يؤسس حقيقة جوهرية وهي أن شأن الولاية
التكوينية شأن اكتسابي يمكن أن يناله كل إنسان إن عرف
طريقه إلى ذلك، وإن ارتاض بالرياضات الروحية اللازمة
لذلك، وهي لا تختص على هذا الأساس بنبي أو وصي
فحسب، وإنما هي متاحة في حدودها الأولية المرشحة
للتنامي لكل إنسان، وتزداد وتقل حسب المنزلة التي يرقى
إليها الإنسان أو يتفهم عنها على تفصيل سيأتي إن شاء
الله تعالى.

أولاً: الدليل القرآني في أبعاده الكلية
ونعني بذلك البحث عن الدليل القرآني في مفهومه
الكلبي من دون الخوض في التفاصيل، ومرادنا الذي نريد
أن نتوصل إليه هنا هو هل أن ولاية الله جل وعلا على
كل شيء - بمعنى تصرفه وتسلطه على كل شيء - قابلة
لأن تمنح لغيره بالتبع أو لا يمكن ذلك؟ ويتبدى لنا هنا
وفي أول وهلة، أن الله سبحانه هو الولي المطلق على كل
مخلوق، والقرآن يفيض بالآيات التي تتحدث عن ذلك
كما في قوله تعالى: (هنالك الولاية لله هو خير ثوابا وخير
عقبا) (١) وقوله تعالى: (إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي
ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) (٢) وقوله

١ - الكهف: ٤٤.

٢ - التوبة: ١١٦.

تعالى: (الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) (١) وقوله تعالى: (أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) (٢) وقوله تعالى: (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد* ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير* وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير* وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) (٣) وغير بذلك من الآيات التي تشير بما هو مفروغ عنه بأن لله الولاية الحق، ومحض أن تكون له الولاية، فلا محذور من أن يلي من أمره ما يشاء فهو صاحب الأمر وما أولاه لغيره، إنما يعبر عن كمال ولايته، وهذا الأمر نجده يتجلى في العديد من الآيات التي تحدثت عن أن الله (جل وعلا) قد أولى جملة من الخلائق بعضاً من شؤون ولايته كما نجد ذلك في الآيات التي تتحدث عن الملائكة، فبعضها خصص لشؤون الوحي كما يشير إليه قوله تعالى: (وما كان

١ - السجدة: ٤.

٢ - الشورى: ٩.

٣ - الشورى: ٢٨ - ٣١.

لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم) (١) وهناك الملائكة التي وصفت بأوصاف متعددة بناء على ما تقوم به من أعمال هذه الولاية كما في قوله تعالى عن أصناف الملائكة التي عبر عنها في الآيات الكريمة: (والصفات صفا* فالزاجرات زجرا* فالتاليات ذكرا) (٢) وكذا في الملائكة التي سميت بالمقسمات في الآية القرآنية الكريمة: (فالمقسمات أمرا) (٣)، وهناك مجموعة الملائكة التي وصفت في سورة المرسلات: (والمرسلات عرفا* فالعاصفات عصفا* والناشرات نشرا* فالفارقات فرقا* فالملقيات ذكرا* عذرا أو نذرا) (٤) وهناك أيضا مجموعة الملائكة التي وصفت في صورة المنازعات بقوله تعالى: (والنازعات غرقا* والناشطات نشطا* والسابحات سبحا* فالسابقات سبقا* فالمدبرات أمرا) (٥)، وفي نفس السياق هناك ملائكة البشارة والعذاب الدنيوي والتي عبر عنها في القرآن بقوله تعالى عن ضيوف إبراهيم (عليه السلام): (وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق من

١ - الشورى: ٥١.

٢ - الصافات: ١ - ٣.

٣ - الذاريات: ٤.

٤ - المرسلات: ١ - ٦.

٥ - النازعات: ١ - ٥.

وراء إسحاق يعقوب) إلى قوله تعالى: (فلما ذهب عن إبراهيم
الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه
منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم
عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا
وقال هذا يوم عصيب) إلى قوله تعالى: (قالوا يا لوط إنا رسل
ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم
أحد إلا امرأتك إنه مصيبيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس
الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا
علينا حجارة من سجيل من سجيل منضود) (١) وكذا ملائكة العذاب
الأخروي والبشارة الأخروية كما في قوله سبحانه وتعالى:
(ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربك قال إنكم ما كثون) (٢) أو قوله
تعالى: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما
كنا نعمل من سوء بل إن الله عليهم بما كنتم تعملون * فادخلوا
أبواب جهنم خالدين فيها فليئس مثوى المتكبرين * وقيل
للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خير للذين أحسنوا في هذه الدنيا
حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين * جنات عدن يدخلونها
تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجري الله
المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا

١ - هود: ٧١ - ٨٢،

٢ - الزخرف: ٧٧.

الجنة بما كنتم تعملون) (١)، وكذا حديثه عن ملك الموت: (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) (٢) وكذا مجموعة الملائكة الذين وصفوا بمرافقة الروح لإبلاغ من يتنزلون عليه في كل ليلة قدر من كل سنة بأمر كل شئ كما في قوله تعالى: (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) (٣)، وغير ذلك كثير جدا لذا كان لدينا تسميات ملائكة العرش وملك الموت وملائكة الرزق وملائكة الوحي وملائكة المطر وملائكة الأعمار وملائكة الدعاء وملائكة الأقدار وغير ذلك مما تفيض به الآيات الشريفة والروايات الصحيحة مما تواتر لدى السنة والشيعية على الإطلاق، وهذه بمجموعها إنما تشير إلى حقيقة أنها تلي من أمر الله ما الله سبحانه أولها إياه، دون أن يعني ذلك أي سلب لمقدرة الله (جل وعلا)

بل على العكس تؤكد كمال ولايته، فالله ضمن منطق عدم الإيلاء يفترض أنه لا يولي من أمره شئ، ولكن الصورة القرآنية المقدمة هنا تقف على خلاف هذا المنطق، فها نحن نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أولى الملائكة الكثير

١ - النحل: ٢٨ - ٣٢.

٢ - السجدة: ١١.

٣ - القدر: ٣.

من شؤون ولايته، من دون أن يجد في التحدث عن ذلك أي غضاظة!.

ونفس هذا الأمر يؤكد المفهوم المنتزل عن ذلك وهو أن الله جعل بينه وبين خلقه وسائط تدبر شؤون العالم، من دون أن يعني ذلك أن هذه الوسائط تقوم بعمل له سنخ الاستقلالية عن الله جل وعلا، ومن دون أن يكون ذلك تعبيرا عن حاجة الله للإعانة كما قد يوحي البعض غاية ما في الأمر أن الله - وهو الحكيم المتعال - أراد ذلك لمصالح رآها، ففي الوقت الذي عبر القرآن الكريم عن الله بالصورة التالية: (إن ربي على كل شيء حفيظ) (١) وكذا قوله تعالى: (وربك على كل شيء حفيظ) (٢)، غير أن هذه القدرة المطلقة على الحفظ لم تمنع من أن تتحدث بلهجة أخرى لتعطي شأن الحفظ إلى ما أسمتهم بالحفظة وكأنها قد أوكلت جميع الحفظ إليهم حتى تلبسوا باسمه كما في قوله تعالى: (وهو القاهر فوق ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) (٣)، والتوفية المطروحة في الآية

١ - هود: ١١.

٢ - سبأ: ٢١.

٣ - الأنعام: ٦١.

الأخيرة هي الأخرى تشير إلى نفس المفهوم فلقد عبرت الآيات الكريمة عن أن الله هو الذي يتوفى الأنفس كما في قوله تعالى: (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) (١) وقوله: (والله خلقكم ثم يتوفاكم) (٢) وكذا قوله: (الله يتوفى الأنفس حين موتها) (٣) ولكن ذلك لم يمنع أنه في نفس الوقت أوكل أمر الموت إلى ملك الموت فصار وكان جميع أمر الموت إليه (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) (٤).

وحيثما يكون الأمر بهذه الشاكلة فإنه يطرح أمامنا حقيقة عدم وجود مانع يمنع ممن أن يولي الله جلت قدرته من شؤون ولايته لغيره من مخلوقاته ما يشاء، ولهذا فإن الموضوع من جهة القضية الكبرى لا تطرح أمام وجود الولاية التكوينية - بمعزل عن كل التفاصيل - أي مانع، طالما أن مصاديق التحقق مطروحة بشكل موسع في القرآن، وهو الأمر الذي سنلتمسه واضحا في المبحث اللاحق.

١ - يونس: ١٠٤.

٢ - النحل: ٧٠.

٣ - الزمر: ٤٢.

٤ - السجدة: ١١.

ولو كان الأمر متاحا إلى الملائكة بهذه الصورة،
فما من ريب أن الذي يفضل على نفس الملائكة - كما
تشير إلى ذلك قصة آدم (عليه السلام) وسجودهم له - لا يمتنع
عليه هذا الأمر، بل على العكس يكون حملة لهذا الأمر
مفروغا عنه، وعليه فإننا نجد في الظهور القرآني البارز
في آية سورة المائدة: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين
يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (١) دلالة ضخمة على
أن هذه الولاية قد منحت بالفعل للإنسان الممثل هنا
بالرسول (ص) ومن سمته بالذين آمنوا بالوصف الذي
استعرضته الآية الكريمة، بغض النظر عن مسماه، إذ
يكفي هنا أن يكون إنسانا قد منح صفة الولاية بالطريقة
المطلقة التي تحدثت عنها الآية الكريمة. فلا تغفل!
فالولاية المشار إليها هنا في من سنخ ولاية الله تعالى
حيث يشير الظهور القرآني هنا إلى أن ما تحدث عنه من
الولاية هو ولاية واحدة حيث جعل كلمة (وليكم) في
قبالة كلمات (الله ورسوله والذين آمنوا) وعطف بولاية الله
على الرسول والذين آمنوا، ولو كان غير هذا الأمر
ولو جدناه يفصل ما بين الولاية المنسوبة لله، وما بين
الأخرى المنسوبة للرسول والذين آمنوا، ويؤكد هذا

١ - سورة المائدة: ٥٥.

المفهوم ما أعقبه من كلام مباشرة بعد هذه الآية (ومن يتول
الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (١) والحديث
عن الفصل بين الولايتين مجرد تمحل في الكلام لأن
الظهور القرآني هنا واضح، ولعدم وجود قيد يخصص
هذا الإطلاق.

١ - المائدة: ٥٦.

ثانياً:

مصاديق الدليل القرآني
يطفح القرآن الكريم بالكثير من الآيات الشريفة التي
تتحدث عن الولاية التكوينية حدوثاً وإمكانية، ورغم أن
العديد منها قد ورد عبر سرد قصصي لحادثة ما، إلا أنها
تعني بتقديم الدلالة الواضحة على إمكانية أن ينال
الإنسان إمكانات فوق إمكانات عالمه المادي هي
إمكانات ما نعبر عنه بالولاية التكوينية ضيقاً واتساعاً،
وأول ما يجابهنا في هذه الآيات والقصص أنها تعبر عن
حقيقة أن شأن الولاية التكوينية شأن اكتسابي، لا يتعلق
بالأنبياء والأوصياء فحسب، بل بكل إنسان يتمكن من
اجتياز الاستحقاق الرباني في ذلك والذي تحدث عنه
الآية القرآنية: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل
عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا)، (١) ولذلك نراها

١ - فصلت: ٣٠.

تتحدث عن انفتاح الإنسان (غير النبي والإمام) على عوامل الملكوت، فهذا هي زوجة إبراهيم (عليه السلام) وهي تخاطب الملائكة، والملائكة هي الأخرى تتحدث معها (وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت: يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) (١)، وها هي أم موسى (عليه السلام) ينفث عالم الغيب عليها كما يشير قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) (٢)، وكذا قوله تعالى: (إنا أوحينا إلى أمك ما يوحى * أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليقله اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له) (٣)، وفي قصص السيدة مريم (عليها السلام) القرآنية الكثير مما يقال على هذا الصعيد، فعالم الملكوت سنجدُه هنا يقبض لها فرصا ضخمة ويومية للتفاعل مع أفياءه كما يشير إليه قوله تعالى في هذا المجال: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم إني لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء

١ - هود: ٧١ - ٧٣.

٢ - القصص: ٧.

٣ - طه: ٣٨ - ٣٩.

بغير حساب) (١) وكذا قوله تعالى: (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) (٢)، وكذا قوله سبحانه وتعالى: (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولمت أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) (٣)، وكذا قوله تعالى في حديثه عن عالم بني إسرائيل: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا)، (٤) وكذا فيما يتعلق بحديثه عن الخضر (عليه السلام) وهو ليس بنبي كما تشير إليه العديد من الروايات (فوجدنا (٥) عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)، (٦)

١ - آل عمران: ٣٧.

٢ - آل عمران: ٤٥ - ٤٦.

٣ - مريم: ١٧ - ٢١.

٤ - الأعراف: ١٧٥.

٥ - من الواضح أن الضمير يرجع إلى موسى (عليه السلام) وفتاه الذي تشير الروايات إلى أنه كان وصيه من بعده يوشع بن نون (عليه السلام).

٦ - الكهف: ٦٥.

وكذلك ما نجد في حديثه الشريف عن ذي القرنين:
(ويستلونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا * إنا
مكننا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا) (١)، وكذا حديثه عن
أصحاب الكهف (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا
من آياتنا عجا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من
لدىك رحمة وهيبى لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على آذانهم في
الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا
أمدا إلى قوله تعالى: وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله
فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم
مرفقا * وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين
وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات
الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا *
وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال
وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا
ولملت منهم رعبا). (٢)

إن هذه القصص والشواهد، كلها تتعلق بأناس ليس
لهم خاصية النبوة أو الإمامة.

١ - الكهف: ٨٣ - ٨٤.

٢ - الكهف: ٨ - ١٨.

أما فيما يتعلق بالحديث عن الشواهد المرتبطة
بالأنبياء والأئمة، فالحديث فيه مستفيض جدا (١)، وفي
هذا المجال نجد أن حديث القرآن عن ذلك يتشعب إلى
قسمين هما:

الأول: يتمحور في الحديث عن الأخبار المجرد
بأن لديهم قدرة الولاية التكوينية، كما في قوله تعالى وهو
يتحدث عن عيسى (عليه السلام): (أني قد جئكم بآية من ربكم
أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا
بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله
وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن
كنتم مؤمنين) (٢) وكذا في حديث القرآن الكريم عن داود
الجبال يسبحن والطير وكنا

١ - إن مما يثير العجب والدهشة بعد كل هذه الشواهد ومما سيأتي
أن يدعي مدع ليتشدد بالقول: (أنا من الناس الذين لا يرون
الولاية التكوينية، لأنني أصور أن كل القرآن دليل على عدم
الولاية التكوينية). (من تسجيل صوتي لأحدهم أحتفظ
بنسخة منه، ونشرته جريدة النصر الكويتية في عددها ٣٥
ص ١٦).

تري أي قرآن وعوه، وأي قرآن فهموه!!
١ - آل عمران: ٤٩.

فاعلين) (١)، وكذا قوله تعالى: (ولقد آتينا داود وسليمان
علما وقلنا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين* وورث
سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء
إن هذا لهو الفضل المبين) (٢)، وكذا قوله تعالى في سورة
سبأ: (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا
له الحديد) (٣)، وكذا في حديثه عن سليمان (عليه السلام) كما
في قوله تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض
التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين* ومن الشياطين من
يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم
حافظين) (٤)، وكما في قوله تعالى: (ولقد آتينا داود
وسليمان علما وقلنا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين*
وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل
شيء إن هذا لهو الفضل المبين* وحشر لسليمان جنوده من الجن
والإنس والطير فهم يوزعون). (٥)
ففي كل هذه الآيات الكريمة لا نجد القرآن يتحدث

-
- ١ - الأنبياء: ٧٩.
 - ٢ - النمل: ١٥ - ١٦.
 - ٣ - سبأ: ١٠.
 - ٤ - الأنبياء: ٨١ - ٨٢.
 - ٥ - النمل: ١٥ - ١٨.

عن شأن الولاية التكوينية بعنوان القضية المنجزة أي أنها قد حدثت تاريخيا في البقعة الفلانية والوقت الفلاني، وإنما يشير هنا إلى أن من تحدث عنه في هذه المفردات القرآنية كان له قدرة الفعل دون أن يشير إلى أنه قد استخدم هذه القدرة أو لا.

والثاني: يتمحور في الحديث عن المسألة بعنوان القضية المنجزة تاريخيا، والحديث عن ذلك كثيرا جدا، إلا أننا نلاحظ هنا أن الحديث هنا هو الآخر يتشعب إلى محورين:

الأول: يختص بإخبار الله للنبي بأنه قادر على التصرف في شؤون الكون، ففي قصة إبراهيم (عليه السلام) نستمع إلى قصة إحياء أولي للموتى كما في قصة الطير التي قطعهن إبراهيم وخلطهن ثم وزعهن على أربعة أجبل () وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزء ثم أدعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) (١)، أو كما في قصص موسى (عليه السلام) الكثيرة جدا في هذا المجال كقوله سبحانه وتعالى: (ولقد أوحينا

إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا
ولا تخشى (١)، أو قوله عز وجل: (فأوحينا إلى موسى أن
أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) (٢)
وكذا في قوله جل جلاله: (واترك البحر رهوا إنهم جند
مغرقون) (٣)، وكذا في قوله الشريف: (وأن ألق عصاك فلما
رآها تهتز كأنها جان ولي مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف
إنك من الأمنين * اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء
واضمم إليك جناحك من الرهب فذلك برهانا من ربك إلى
فرعون وملايئه إنهم كانوا قوما فاسقين) (٤)، وكذا في
قوله تعالى: (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب
بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل
أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله) (٥)، ومثله قوله
تعالى: (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما
يأفكون). (٦)

١ - طه: ٧٧.

٢ - الشعراء: ٦٣.

٣ - الدخان: ٢٤.

٤ - القصص: ٣١ - ٣٣.

٥ - البقرة: ٦٠.

٦ - الأعراف: ١١٧. وكذا قوله تعالى: (وألقت ما في يمينك تلقف ما
صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى). [طه: ٦٩].

والثاني: هو تعبير الله عن القضية بعنوان حدوثها واستعمال النبي لها كما نجد ذلك في قصص عيسى (عليه السلام) الواردة في تعبيره سبحانه وتعالى: (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أتيتك بروح القدس تكلم الناس في المهمل وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهية الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) (١) وكذا العديد من قصص موسى. وكل ذلك لا بد وأن يدلنا على حقيقة ثبوت الدليل القرآني الوارد في شأن الولاية التكوينية إلى درجة استفاضة الحديث عنه في مواقع كثيرة من القرآن.

١ - المائدة: ١١٠.

ثانياً: دليل الفكر القرآني
ونعني به هنا الدلائل التي نستوحيها من القرآن
الكريم وإن لم يتحدث عن الولاية التكوينية، وإنما يمكن
أن نلاحظ أن الولاية التكوينية هنا تأتي كقضية جزئية ضمن
قضية أكبر جعلت حقاً للمعصوم (عليه السلام)، وتحقق الشيء
الأكبر هو في الحقيقة تحقق لما هو أصغر منه.
وفي الواقع أن شواهد هذا الدليل هي كثيرة جداً،
ولنأخذ منها البعض:
أ - الكون أمانة بيد المعصوم:
تظهر آية الأمانة الواردة في القرآن بقوله تعالى:
(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها

وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (١) أن الله سبحانه وتعالى حينما عرض أمانة مسؤولية الكون كل الكون - ضمن سياق القدرة التكوينية (٢) - حملها

١ - الأحزاب: ٧٢.

٢ - لم تكن عملية العرض هنا عملية سؤال وجواب تشريعيين بمعنى أنه لم يكن هناك حوار بين الله ومخلوقاته قال الله فيه للسموات والأرض والجبال أن يحملن عبي أمانة السماء فجاء جوابهن أنهن رفضن العرض، وإنما كان الحوار ضمن سياق قدراتها التكوينية، ولأن الطبيعة التكوينية للإنسان كونه مختارا ويتمتع بقابلية العقل وهو أمر لازم لحمل الأمانة، لذا فقد حمل الأمانة المعبر عنها في الآية الكريمة.

ولا يعني وصفه بالظلم والجهل أنه يسري لكل أفراد هذا الإنسان، لأن ذلك تعني أن الله جل وعلا قد كلف الظلوم الجهول بهذه الأمانة في الوقت الذي كان سبحانه وتعالى قد تعهد على أن لا ينيل الظالم عهده كما أوضحته الآية القرآنية: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) [البقرة: ١٢٤]. وحيث أن عرض الله سبحانه لا يتخلف لذا لا بد من وجود جهة يتعلق بها هذا الحمل، وهذه الجهة تتصف بعدم الظلم والجهل مما يقتضي كونها معصومة، ولربما يذهب بعض المفسرين إلى القول بأن الإنسان كلما ابتعد عن الظلم والجهل كلما كان جديرا بحمل هذه الأمانة، وهو غير متعارض مع ذلك، إذ عنده يكون المعصوم هو جهة الإنسان الكامل، وما سواه مما يسير باتجاهه فتأمل..

الإنسان فهذا العرض لازمه وجود المؤهل الذاتي لدى الإنسان على الحمل، وهذا الحمل لازمه أنه لا بد من وجود جهة خاصة قادرة على النوء بمسؤوليات هذه الأمانة، لأن الله لن يضع أمانته بيد كل من هب ودب، إذ لا يمكن مع ذلك تحقق مقتضيات الحكمة من هذا الجعل، ولهذا لا بد وأن تكون هذه الجهة في مصاف التكامل المقتضي لعناية الحكمة الإلهية، ولهذا قال أهل التفسير أن هذا الإنسان الذي حمل هذه الأمانة لا بد وأن يكون كاملاً حتى يمكن للحكمة الإلهية أن تكون مستوفاة، وحيث أنه لا خلاف في حقيقة أن هذا الإنسان هو رسول الله (ص)، فقد ثبت أن الرسول (ص) قد أولى مهمة أمانة الكون، وحيث أن مقتضيات هذه الأمانة ينبغي أن تستمر حتى بعد رسول الله (ص) لذا لا بد وأن تنتقل هذه المسؤولية إلى الجهة الممثلة لرسول الله في البعد الرسالي وهم في مفهومنا أهل البيت (عليهم السلام) وحيث ثبت ذلك، ثبت علق الولاية التكوينية للمعصوم، لأنه من الواضحات شأن الولاية التكوينية أصغر شأناً من تحمل الأمانة، فمن أولى البديهيّات أن يتعرف المؤمن على تفاصيل الأمانة كي يتمكن من الحفاظ عليها، وهذا ما يقتضي أن ينكشف

له عالم الملكوت لأنه من مكونات هذا الكون.
ب: تعلق الوجود الكوني على وجود المعصوم: (١)
يطرح القرآن المجيد هذه الحقيقة في الآية الكريمة
الواردة في سورة هود: (وهو الذي خلق السماوات والأرض في
ستة أيام وكان عرشه على الماء ليلوكم أيكم أحسن
عملا) (٢) فهنا يصرح بأن خلق الكون كان معلل لوجود
جهة من وصفهم بالأحسن عملا، وحسن العمل تكامله
وخلوه من الخلل والعيب، وهذا مقتضى العصمة، فحيث
أنه خلق الكون وبرر عملية الخلق بأنها إنما تمت فمن
أجل وجود من هو أحسن عملا، اقتضى ذلك وجود هذه
الجهة التي تعبر عن حسن أعمل وتكون مصداقا له كي
تكون بمثابة الحجة المصدقية على بقية البشر، لهذا يكون
وجود الكون متعلقا بوجود هذه الجهة، لأن عدم وجودها
يقضي بانتفاء المبرر الذي اختفى وراء لام التعليل
الموجودة في كلمة: (ليلوكم)، وهذا هو مؤدى

١ - تعرضنا إلى هذه الحقيقة بالتفصيل في بحثنا: (الإمامة بحث
في الضرورة
والمهام) الذي نأمل أن يرى النور قريبا إن شاء
الله تعالى.
٢ - هود: ٧.

الأحاديث المتواترة عن النبي (ص) وأهل البيت (عليهم السلام) والتي تقضي بهذا المؤدى.

ففي صحيحة ثقة الإسلام الكليني فيما رواه عن العدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسين بن أبي العلاء قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): تكون الأرض وليس فيها إمام؟ قال: لا. (١)

وفي صحيحة علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن ابن مسكان، عن أبي بصير عن أحدهما (عليهما السلام) (٢) قال: إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل. (٣)

وفي صحيحة علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن محمد بن الفضيل، عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: قلت أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا، قلت: فإننا نروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) إنها لا تبقى بغير إمام إلا أن يسخط الله تعالى على أهل الأرض أو العباد، فقال: لا، لا تبقى إذا لساخت. (٤)

-
- ١ - الكافي ١: ١٧٨٩ ح ١.
- ٢ - أي الإمام الباقر أو الصادق (عليهما السلام).
- ٣ - الكافي ١: ١٧٨ ح ٥.
- ٤ - الكافي ١: ١٧٩ ح ١١. ومثله في بصائر الدرجات عن أحمد ابن عمر والحسن الوشاء. (بصائر الدرجات: ٥٠٩ ج ١٠ ب ١٢ ح ٦ - ٧).

وبنفس الإسناد، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، قلت لأبي عبد الله: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت. (١) ومثل ذلك كثير، وتؤكد بنفس الطريقة الآية الكريمة: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) (٢)، فهنا علة عدم نزول العذاب بسبب وجود المعصوم (ص). وفي نفس السياق يتجه مفاد الآية الكريمة: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٣)، فهنا الآية كسالفها تعلق عملية الخلق بوجود الجهة العابدة، وحيث أن العلة لا تتخلف عن وجود المعلول بل هي مرتبطة بهن فلا بد أن تكون هذه الجهة قد خلقت مسبقا (٤) وإلا ما تمت عملية الخلق التي علق تحققها على وجود تلك الجهة، وهذه الجهة حيث وصفت بالعبادة لا بد وأن تكون عبادتها

١ - الكافي ١: ١٧٩ ح ١٠.

٢ - الأنفال: ٣٣.

٣ - الذاريات: ٥٦.

٤ - الخلق هنا ليس خلقا جسمانيا، وإنما هو خلق أنوارى كما تفيد الكثير من الروايات الصحيحة.

كاملة مما يقتضي عصمتها، وما من ريب في أنها تتحقق بأفضل العابدين وميزهم عند الله وهو رسول الله (ص) ومن له امتداد رسالي معه وهم أهل البيت (عليهم السلام). وإذا ما ثبت هذا الأمر فإن من البديهي ثبوت تفاصيله، وما من شك في أن شأن الولاية التكوينية هو أصغر بكثير من شأن تعلق الوجود الكوني على وجود المعصوم (عليه السلام)، فلا تغفل!!.

ج: الإنذار والتبشير في عالم الجن:
من المسلم به قرآنياً هو أن مسألة الإنذار والتبشير الموكلة إلى الرسول (ص) تشمل الجن كما شملت الإنس كما يتجلى ذلك في سورة الجن: (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا* يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) (١) والسؤال البديهي هنا هو كيف يمكن للرسول أن يتواصل مع عالم الجن من دون قدرات الولاية التكوينية؟ من الطبيعي أن الجواب على ذلك ليس عسيرا بعد كل ما قدمنا، لا سيما وأنا ندرك تماما أن مسؤولية الهداية والإنذار تفوق في الشأنية كل شؤون

١ - الجن: ١ - ٢.

الولاية التكوينية.
د - تنزل الروح في ليلة القدر:
سورة القدر من جملة السور التي تقرأ كثيراً،
ولكنها تنطوي في مجال بحثنا هذا على أهمية عظمى،
فعلى من تنزل؟ وبأي أمر تنزل؟ وما هي غايات التنزيل؟
فلدينا هنا فعل مضارع (تنزل) وهو يشي بطبيعته إلى
الاستئناف، وفعل كهذا يؤكد على أن شأن ليلة القدر لا
زال مستمرا من حيث نزول الملائكة بمعية الروح حتى
الساعة، وهو ما يتأكد أيضا بوجود عبارة: (من كل
أمر) (١) فهذه العبارة على ما تفيده بعض اتجاهات
التفسير لدى الخاصة، وبعض اتجاهات التفسير لدى
العامية، ومنها تفسير محمد حسين فضل الله (٢). متعلقة
بالأرزاق والآجال وبكل ما يتعلق بشؤون الكون الأرضي
- على ما يشير إليه فضل الله - ولو كانت كذلك فمثل
هذا الأمر لو كان مختصا برسول الله (ص) (٣) لكفانا وحده
بالقول بوجود ولاية له على سائر موجودات الكون

١ - القدر: ٤.

٢ - من وحي القرآن ٢٤: ٤٠٦.

٣ - وهو ما ياباه وجود فعل المضارعة (تنزل).

الأرضي، فمن أجل أي شيء يحتاج الرسول لكي يتعرف على كل أمر لولا منحه الولاية على هذه الأشياء، أما لو تماشنا مع الاتجاه العام للتفسير الخاصة المعتمدة على الموثوق من حديث أهل البيت (عليهم السلام) والمؤيدة من وجود فعل المضارعة بأنها لا زالت تنزل إلى يومنا المعاصر هذا وستبقى حتى يتوفى الله الكون وما فيه، فالتساؤل عن هذا الذي ما زالت تنزل عليه عندئذ لن تجدن غير الإمام الشاهد (١)، وعلم كهذا، واتصال ملكوتي كذلك، وشهادة كونية كهذه تستلزم الولاية التي تحدثنا عنها، فتأمل!.
ه - إذا ثبت للمفضول شيء ثبت للفاضل أشياء:

إذا ثبت أن بإمكان إنسان ما القيام بشيء معين نتيجة ميزة معينة، فإن من البديهي بمكان أن نقول بأن من يتفوق على ذلك الإنسان في المزية التي جعلته قادرا على القيام بذلك الشيء هو أقدر على القيام بهذا الشيء، ولذا إذا كان بمقدور الأنبياء السابقين لرسول الله (ص) النوء بأعباء شأنية الولاية التكوينية، فإن من المفروغ عنه أنه (ص) ومن يمثله أقدر وأولى من أولئك في المقدرة على هذه

١ - أنظر تفاصيل ذلك في كتابنا: من عنده علم الكتاب؟ فقد بينا ما فيه إرواء للمستزيد.

الشأنية، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: (قال الذي عنده علم من الكتب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) فقد اعتبرت الآية الكريمة أن آصف بن برخيا قد تصرف بظروف الزمان والمكان - ضمن تفصيل سيأتي عما قليل - نتيجة ما عنده من علم الكتاب، مع عنايتها بكلمة (علم - من - الكتاب) التبعية لتشير إلى أنه لم يكن لديه علم من الكتاب إلا بعضه، ولكن كيف الحال بمن يمتلك كل علم الكتاب المشار إليه الآية القرآنية: (ويقول الذين كفروا لست برسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) (١) فهذا الرجل (٢) ينبغي أن يكون أفضل من آصف بن برخيا منزلة، وكذا في طبيعة قدراته على التصرف بشؤون الولاية التكوينية، ولهذا ليس من الصحيح أن يكون هذا الرجل هو من علماء أهل الكتاب كما تذهب إليه بعض مرويات العامة (٣) وإلا لكان آمن

١ - الرعد: ٤٣.

٢ - العجيب أن أغلب تفاسير العامة قالت أن من عنده علم الكتاب هو الله جل جلاله، وقد تعسفوا لذلك تعسفات كانوا في غنى عنها، رغم وضوح أن الواو هنا عاطفة، ولكنها الطائفية العمياء!! أنظر تفصيلها في كتابنا: من عنده علم الكتاب؟.

٣ - وذهب إلى ذلك في جملة مخالفاته الأخيرة للإمامية محمد حسين فضل الله في جوابه لسؤال وجهه في جوابه لسؤال وجهه إليه حول هذا الخصوص، فنفي أن تكون الآية قد نزلت بحق الإمام علي (عليه السلام)، مدعيا أن الأقرب هي نزولها بحق علماء أهل الكتاب، ولذا قال ما نصه: (هناك رواية تقول أنه علي (عليه السلام)، ولكن هناك روايات تنطلق من سياق الآية أي أن النبي (ص) كان يستشهد بالأشخاص الذين يملكون علم الكتاب حتى يعرفوا المسلمين بأن النبي (ص) مذكور في التوراة والإنجيل، ولعله الأقرب، لأن الإمام (عليه السلام) كان مع النبي فكيف يستشهد به وهم لا يقرون علمه). (أنظر: جريدة فكر وثقافة الصادرة عن حوزة المرتضى في دمشق العدد: ٢٢ الصادر في تاريخ: ٢٣ / ١ / ١٩٩٦، والجريدة والحوزة تتبع له).

وما فعل ذلك إلا ليكمل مسعاه المتعلق بعقيدة أهل البيت ومن حملته نفي الولاية التكوينية عن الأئمة (عليهم السلام)، وواضح أن المغالطة فيها صريحة جدا، فعدد الروايات الصحيحة الواردة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) متواترة جدا كما سنذكر

ذلك بعد حين، وقد كان يكفيه رواية واحدة صحيحة الند، فكيف والأمر يتعدى إلى الكثرة المتكاثرة وإلى إجماع علماء الشيعة على ذلك، أما موضوع الشهادة فلعمري كيف يشهد هؤلاء وهم أنفسهم لم يؤمنوا برسول الله (ص) في وقت نعلم فيه أن الكتاب الموجد لديهم كتاب محرف، وكيف يشهدهم رسول الله (ص) ويعرض نفسه للإحراج المل، وهم قد كذبوا عليه من قبل وكذبوا على أنفسهم وقومهم من قبل، فما بالهم إذا علموا أنه رسولا من الله لم يؤمنوا به!! ولقد أجاد الفخر الرازي في تفسيره للآية حينما قال: إن إثبات النبوة بالواحد والاثنين مع جواز الكذب على أمثالهم لكونهم غير معصومين لا يجوز، فلا معنى لتفسيرها بابن سلام وأصحابه، (تفسير الرازي ١٩ : ٧٠).

ولو كانت المسألة متعلقة بحاجة الرسول إلى من يشهد له بأنه مذكور في الكتب السماوية السابقة، فقد كان يكفيه بدلا من هذه الشهادة التي تنطوي على المغامرة، أن يأتي بهذه الكتب، ويستخرج المواضع التي ما زال ذكره فيها رغم وقوع التحريف فيها، ويشهد أهل الكتاب على ذلك، وعندئذ فإن الشهادة تكون أبلغ.

هذا رغم أن الرسول كما القرآن أكد أن كتب أهل الكتاب باتت محرفة، فكيف يعطي قيمة علمية وموضوعية إلى درجة المراهنة بسمعته ومصداقية كلماته ورسالته لعالم بكتاب محرف.

على أنه ما المغزى الذي يجعل الذين كفروا بحاجة إلى شهادة علماء أهل الكتاب، وموضعهم من حيث المصداقية الاجتماعية هو نفس مصداقية الرسول إذا لم يكن الرسول أفضل منهم لكونه كان معروفا بعدم الكذب؟. وقد ناقشنا في كتابنا من عنده علم الكتاب؟ كل التفاصيل المتعلقة بهذا الشأن بما فيه الشبهات التي طرحها محمد حسين فضل الله في هذا المجال.

برسول الله (ص) فور بعثته واصطفاه الرسول لمنزلته هذه،
لما يفترض أنه يعلم مسبقا ببعثة الرسول الصادق، (١)
وحيث أنه لمت يحصل ذلك، يتبين لنا أن هذا الرجل ذو
المنزلة العظيمة عند الله والذي اختاره الرسول (ص)
للقيام بهذه المهمة لن يكون من أهل الكتاب، ولن
يكون الرسول نفسه، وأن الكتاب المقصود ليس التوراة
والإنجيل ولا غيره من الكتب السماوية لأنها قد حرفت
أولا، وثانيا لعدم صلاحيتها لأن تكون موضع استشهاد
من له منزلة كمنزلة الرسول (ص)، على أننا نلمس من

١ - علما أن سورة الرعد - في الأعم الأغلب - سورة مدنية،
ويفيد محتواها أنها نزلت بعد اشتداد إحنة أهل الكتاب على
الرسول (ص)، بمعنى أنها نزلت في وقت متأخر بعد قدوم
رسول الله إلى المدينة. (أنظر البرهان في علوم القرآن ١:
٢٥١ للزرکشي)، وقريب منه (الإتقان في علوم القرآن
للسيوطي ١: ١٣) وكذا تأريخ القرآن للأخ الدكتور الشيخ
محمد حسين علي الصغير: ٦٠، ويذهب الزرکشي إلى أن
بعض آياتها نزل في الحديبية (١: ٢٥٥).
أما على رواية بعض المفسرين المتقدمين، وبعض المتأخرين
كالعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان (١١: ٢٨٥) في كونها
مكية فالكلام فيها أبلغ، فإذا كان المقصود في رواياتهم هو
عبد الله بن سلام وأضرابه كتميم الداري، فهؤلاء إنما أسلموا
في المدينة، فلا يبقى غير علي (عليه السلام).

القرآن عدم استخدامه للشواهد على صحة نبوة أي نبي غير كتاب النبي ومعجزاته، وبهذا يخرج أي احتمال لتصديق دعوى أن يكون الكتاب هو كتاب أهل الكتاب، فضلا عن أن يكون الشاهد منهم. ولا يبقى عندئذ غير احتمالين فهو إما أن يكون المقصود بالكتاب اللوح المحفوظ المدونة فيه أسرار عالم الملكوت (١) كما أشارت العديد من مرويات المفسرين، أو الكتاب العزيز (٢)، ولا يصلح لكليهما غير الإمام علي (عليه السلام) والذي نصت عليه المرويات الإمامية بالإجماع (٣)

١ - وقد يؤيده الآيات السابقة له، وتدعمه آية (الذي عنده علم من الكتاب).

٢ - وقد يؤيده مفتح السورة (المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق) كما يشير إلى ذلك العلامة الطباطبائي (الميزان في تفسير القرآن ١١: ٣٨٣ - ٣٨٤) ويؤكد أنه الشاهد على صحة الرسالة التي تضمنها باعتبار أنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [فصلت: ٤٢].

٣ - ليس بالمقدور استقصاء ذلك ضمن هذه العجالة ولكن سأكتفي ببعض الروايات الصحيحة السند فذلك ضمن قاعدة التشدد السندي، (؟)

وفقا لمنهج المقدس الراحل السيد الخوئي (قدس سره)، ففي صحيحة علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، ومحمد بن يحيى، عن محمد بن الحسن بن الوليد، عن ذكره، عن ابن أبي عمير جميعا، عن ابن أذينة، عن بريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر (عليهم السلام): (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) قال: إيانا عنى، وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي (ص). [الكافي ١: ٢٢٩ ح ٦].

ونفس الرواية ولكن عن محمد بن الحسين ويعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير في بصائر الدرجات: ٢٣٤ - ٢٣٥ ج ٥ ب ١ ح ١٢.

وعن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن أحمد بن محمد، عن حماد بن عثمان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن قول الله عز وجل: (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) هو [أهو خ. ل] علي بن أبي طالب (عليه السلام)،؟ قال: فمن عسى أن يكون غيره. [بصائر الدرجات: ٢٣٥ ج ٥ ب ١ ح ١٥].

وفي موثوقة يعقوب بن يزيد، عن الحسن بن علي بن فضال، عن عبد الله بن بكير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال:

كنت عنده فذكروا سليمان وما أعطي من العلم وما أوتي من الملك، فقال لي: وما أعطي سليمان بن داود، إنما كان عنده حرف واحد من الاسم الأعظم، وصاحبكم الذي قال الله: (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وكان والله عند علي (عليه السلام) علم الكتاب، فقلت: صدقت والله جعلت فداك. [ن. م: ٢٣٢ ج ٥ ب ١ ح ١]. وفي صحيحة أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحبي، عن أيوب بن الحر، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، والنضر بن سويد، عن عاصم بن حميد، عن محمد بن مسلم، وفضالة بن أيوب، عن أبان، عن محمد بن مسلم، والنضر بن سوي، عن القاسم بن سليمان، عن جابر جميعا، عن أبي جعفر

(عليه السلام) في قول الله عز وجل (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) قال: هو علي بن أبي طالب (عليه السلام). [ن. م: ٢٣٥ ج ٥ ب ١ ح ١٤]. وفي موثوقة محمد بن الحسين، عن ابن فضال، عن مثنى الحنات، عن عبد الله بن عجلان، عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) قال: نزلت في علي (عليه السلام) عالم هذه الأمة بعد رسول الله (ص). [ن. م: ٢٣٦ ج ٥ ب ١ ح ١٧]. وغير ذلك كثير من الأحاديث الموثوقة والمعتبرة، وكذا الأحاديث التي يجبر ضعف بعضها المتأتي من الإرسال والمجهولية في حال بعض الرواة تواتر الخبر عن غير طريق عن الأئمة (عليهم السلام)، كما رأينا آنفا.

(؟) العجيب والمضحك أن أحد المعترضين من تيار التحريف حاول أن يبرر لأستاذه موقفه من كل هذه الأحاديث وما سيمر فقال: إن المشكلة بينك وبين فضل الله هو أنك تعتقد بمنهج التشدد السندي، وهو لا يعتقد بلك، لذلك هو أخذ من روايات العامة التي صلح في هذا المجال، ولا أدري إن كان مثل هذا المنطق يستحق الرد أو لا! ولكني أشير هنا إلى أن منهج التشدد السندي إنما تحتاجه في مقام الفتوى وليس في مجالات كهذه حيث يمكن الاستدلال عليها عقليا لدخولها في دائرة المعتقدات إن جاء فيها نص، فكيف وقد تظافرت النصوص، ونحن إن استخدمنا هنا هذا المنهج فلسبب واضح هو حاجة الحجاج إلى ذلك بحيث لا تبقى أمام من تحاججه حجة التذرع بضعف السند وما إلى ذلك ليس إلا!!! هذا إن كان إماميا!!!.

وعدد غير قليل من مرويات أهل العامة. (١)
و: من لديه علم القرآن كيف لا تكون لديه ولاية!
من الواضح أن الرسول (ص) هو المؤمن على
القرآن، وبالتالي كان هو المطلع على كل أسرار القرآن
الذي حوى كل شيء، وفقا لقوله تعالى: (ونزلنا عليك
الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٢)
ومن هو أولى منه بذلك، ومنه سار الأمر بالتتابع إلى بقية
الأئمة (عليهم السلام)، وإذا ما كان ذلك صحيحا، فإن من البداهة
بمكان أن أسرار الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن

١ - أنظر للمثال ينابيع المودة للقندوزي الحنفي: ١٠٢ - ١٠٤،
والقرطبي في تفسيره ٩: ٣٣٦ بسندين، والجوزي في زاد
المسير في علم التفسير ٤: ٢٥٢ والآلوسي في تفسيره
بسندين نقلا عن البحر المحيط ٩: ١٧٦.
٢ - النحل: ٨٩.

ثمة قدرات في القرآن تمنح المطلع عليها القدرة على
التصرف بالظواهر الكونية كما في قوله تعالى: (ولو أن
قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) (١)
وقوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا
متصدعا من خشية الله) (٢)، فإذا كان في القرآن مزايا
تسيير الجبال وتصديعها وتقطيع الأرض وتكليم الموتى،
فأي مبرر لنا يجعلنا ننأى بعلم رسول الله (ص) بذلك، هو
العالم بكل أسرار القرآن!!
وإذا كان القرآن قد استفاض في الحديث عن ظواهر
الولاية التكوينية، فكيف يمكن لنا أن نتعقل عدم علم الرسول (ص) بذلك؟!
(وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن
الظن لا يغني من الحق شيئا). (٣)

من كل ذلك أن نلاحظ حقيقة أن شأن الولاية

١ - الرعد: ٣١.

٢ - الحشر: ٢١.

٣ - النجم: ٢٨.

التكوينية هو شأن استفاض القرآن الكريم في الحديث
عنه.

يبقى أن نشير إلى أننا هنا كنا في معرض التمثيل
والاستدلال وليس الحصر.

ثالثاً: الدليل الروائي

(١٨٣)

ونقصد في هذا الدليل هو ما صح نقله عن المعصوم (عليه السلام) في حديثه عن مختلف شؤون الولاية التكوينية كي تكتمل لدينا الصورة، فما نعتقده أن حديث المعصوم (عليه السلام) وهو ما نعبر عنه بالسنة هو صنوان القرآن وعدله، وسوف لن نتوقف عنده كثيرا، إلا بمقدار ما نقتطف منه باقة من بعض الروايات ذات الدلالة الهامة لمبحثنا هذا (١) معتمدين في ذلك نفس ما أشرنا إليه في الهامش السابق، وهو أننا سوف لن ندرج أية رواية إلا وفق منهج التشدد السندي الذي لا يتسامح في شؤون الجرح والتعديل لرجال الأحاديث ورواته، أي إننا لن ندرج هنا رواية إلا من خلال من وصفهم منهج التشدد

١ - آثرنا أن نقتطف من كل مورد من موارد الولاية حديثا أو حديثين، علما أن ما سنذكره هنا يوجد في أبوابه موارد متعددة من الأحاديث الصحيحة والموثوقة والحسنة والمعتبرة تربو على العشرات.

السندي بالثقات.
يبقى أن نشير إلى حقيقة مهمة وجوهرية بالنسبة لنا نحن الشيعة الإمامية، وهي أن إثبات صدور حديث أو أكثر عن المعصوم (عليه السلام) في قضية ما، فإن ذلك يعني أننا على إلزام بقبول هذه القضية، طالما أن ذلك لا يتعارض مع القرآن الكريم فنحن أناس نعتقد بأن السنة هي المصدر الثاني للتشريع (١)، ولهذا فإن سنة المعصوم إن أبلغتنا بشكل قطعي (٢) بوجود الولاية التكوينية، قولاً أو فعلاً أو إمضاءً، فإن ذلك يلزمنا بقبول العقيدة بذلك وفقاً لمفاد قوله تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) (٣) وبغيره فإن من الصعب تصور عدم خروجنا عن الإيمان بمذهب أهل البيت (عليهم السلام)، وكيف يكون إيمان بهذا المذهب وأنت لا تصدق بموثوقات الصدور عن الأئمة (عليهم السلام)، ولا تعمل بها، والآن لنعد

-
- ١ - نقصد بالسنة فعل المعصوم وقوله وتقريره.
 - ٢ - وهذا يمكن حصوله من طرق متعددة كأن يبلغ الأمر حد التواتر من في المنقول عن المعصوم، أو أن يتعدى الخبر خبر الواحد، ويتصل سنده بصلة صحيحة أو موثوقة بالمعصوم (عليه السلام).
 - ٣ - الأحزاب: ٣٦.

كي نتعرف على ما في جعبة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) من ذلك، علما بأن ما سندرجه هنا من أخبار وروايات له طابع التمثيل لا الحصر، لأن الثاني يحتاج إلى جهد ووقت وحيز كبير لا تتوفر عليه الآن (١) مع العلم أن الحديث عن هذا الأمر في سنة المعصوم (عليه السلام) كثير ومستفيض جدا.

١ - ففي صحيحة علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن ابن مسكان، عن أبي بصير قال: سألت أبي عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) (٢) قال: خلق

١ - ننصح القارئ الكريم إن أرادت المزيد مراجعة الجزء الأول من الكافي لثقة الإسلام الكليني، وكذا كتاب بصائر الدرجات للمحدث الجليل محمد بن الحسن الصفار، وكذا كتاب مختصر بصائر الدرجات الخاص بسعد بن عبد الله الأشعري لمؤلفه المحدث الخبير الحسن بن سليمان، وكذا كتاب الخرائج والجرائح للفقهاء المحدث القطب الراوندي، وكتاب إثبات الهداة في النصوص والمعجزات للمحدث الجليل الحر العاملي وغيرها كثير، مع ملاحظة أن هذه الكتب تحتوي في بعض طياتها على الخبر الضعيف.

٢ - الإسراء: ٨٥.

والسؤال هنا عن الروح.

أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله (ص) وهو مع الأئمة، وهو من الملكوت (١).

٢ - وكذا في صحيحة علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب الخزاز، عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممن مضى، غير محمد (ص) وهو مع الأئمة يسددهم (٢).

٣ - وكذا عن محمد بن عبد الجبار، عن أبي عبد الله البرقي، عن فضالة بن أيوب، عن عبد الصمد بن بشير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان مع عيسى بن مريم حرفان يعمل بهما، وكان مع موسى (عليه السلام) أربعة أحرف، وكان مع إبراهيم ستة أحرف، وكان مع آدم خمسة وعشرون حرفا، وكان مع نوح ثمانية وجمع ذلك كله لرسول الله (ص)، إن اسم الله ثلاثة وسبعون حرفا، وحجب عنه واحدا. (٣)

١ - الكافي ١: ٢٧٣ ح ٣.

٢ - الكافي ١: ٢٧٣ ح ٤.

٣ - بصائر الدرجات: ٢٢٩ ج ٤ ب ١٢ ح ٤.

٤ - وكذا عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن شعيب العرقوفي، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الذي إذا سأله أعطى، وإذا دعا به أجاب، ولو كان اليوم لاحتاج إلينا. (١)

٥ - وعن إبراهيم بن هاشم، عن عبد العزيز بن المهتدي، عن عبد الله بن جندب أنه كتب إليه أبو الحسن الرضا (عليه السلام): أما بعد فإن محمدا (ص) كان أمين الله في خلقه فلما قبض كنا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام. (٢)

٦ - وعن أحمد بن محمد (٣)، عن علي بن الحكم، عن مثنى الحنات، عن أبي بصير قال: دخلت على أبي

١ - ن. م: ٢٣١ ج ٤ باب نادر من باب ١٢ ح ٢.

٢ - ن. م: ٢٨٧ ج ٦ ب ٢ ح ٥.

٣ - أحمد بن محمد حينما يأتي في بداية سند الحديث الثقة هنا فهو إما أحمد بن محمد بن خالد البرقي، أو أحمد بن محمد ابن عيسى، وإذا ما جاء بالقرب من اسم المعصوم فهو البزنطي أحمد بن محمد بن أبي نصر، وفي هذا الحديث هو أحمد بن محمد بن عيسى على الأغلب.

عبد الله (عليه السلام) وقلت لهما: أتتما ورثة رسول الله (ص)؟ قال: نعم، قلت: فرسول الله وارث الأنبياء علم كل ما عملوا؟ فقال لي: نعم، فقلت: أنتم تقدرون على أن تحيوا الموتى وتبرؤوا الأكمه والأبرص فقال لي: نعم بإذن الله، ثم قال: ادن مني يا أبا محمد فمسح يده على عيني (١) ووجهي وأبصرت الشمس والسماء والأرض والبيوت وكل شئ في الدار قال: أتحب أن تكون هكذا ولك ما للناس وعليك ما عليهم يوم القيامة أو تعود كما كنت ولك الجنة خالصا، قلت: أعود كما كنت قال: فمسح على عيني فعدت كما كنت.

قال علي (٢): فحدثت به ابن أبي عمير فقال: أشهد أن هذا حق كما أن النهار حق (٣).

٧ - وعن أحمد بن محمد، عن العباس بن معروف، والحسين بن سعيد، عن حماد بن عيسى، عن الحسين بن المختار، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان علي (عليه السلام) محدثا وكان سلمان

١ - وقد كان ضريرا.

٢ - أي ابن الحكم.

٣ - بصائر الدرجات: ٢٨٩ ج ٦ ب ٣ ح ١.

محدثا، قال: قلت: فما آية المحدث؟ قال: يأتيه ملك
فينكت في قلبه كيت وكيت (١).
٨ - وعن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد،
عن حماد بن عيسى، عن الحسين بن المختار، عن
الحرث بن المغيرة النصري (٢)، عن حمران، قال: قال لي
أبو جعفر (عليه السلام): إن عليا كان محدثا فخرجت إلى
أصحابي (أصحابنا خ. ل) فقلت لهم: ت جئتكم بعجيبة
قالوا: ما هي؟ قلت: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: كان
عليا محدثا، قالوا: ما صنعت شيئا إلا سألته من يحدثه؟
فرجعت إليه فقلت له: إني حدثت أصحابي بما حدثتني
قالوا: ما صنعت شيئا إلا سألته من
يحدثه؟ فقال لي: يحدثه ملك قلت: فنقول إنه نبي؟ قال: فحرك يده
هكذا (٣)، ثم قال: كصاحب سليمان (٤) وكصاحب موسى
أو كذي القرنين أو ما بلغكم أنه قال: وفيكم مثله (٥).

- ١ - ن. م: ٣٤٢ ج ٧ ب ٦ ح ٤.
٢ - كذا في المصدر، والصحيح النصري نسبة إلى نصر بن
معاوية، وهو خطأ شائع.
٣ - أي بالنفي.
٤ - على ما في نسخة البحار.
٥ - بصائر الدرجات: ٣٤١ - ٣٤٢ ج ٧ ب ٦ ح ٣.

٩ - وعن العباس بن معروف، عن حماد بن عيسى،
عن حريز، عن أبي بصير، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال:
سأل علي (عليه السلام) عن علم النبي (ص) فقال: علم النبي علم
جميع النبيين وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام
الساعة، مثقال: والذي نفسي بيده إني لأعلم علم
النبي (ص) وعلم ما كان وما هو كائن فيما بيني وبين قيام
الساعة (١).

١٠ - وعن أحمد بن محمد، ومحمد بن الحسين،
عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رثاب، عن
ضريس (٢) قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول، وأناس
من أصحابه حوله إني أعجب من قوم يتولونا ويجعلوننا
أئمة ويصفون بأن طاعتنا عليهم مفترضة كطاعة الله، ثم
يكسرون حججهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم،
فينقصون حقنا ويعيبون لك علينا من أعطاه الله برهان
حق معرفتنا بالتسليم لأمرنا، أترون أن الله تبارك
وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده، ثم يخفي
عنهم أخبار السماوات والأرض، ويقطع عنهم مواد
العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم، فقال حمران:

١ - ن. م: ١٤٧ ج ٣ ب ٦ ح ١.
٢ - هو ضريس الكناسي الثقة.

جعلت فداك، [أ] رأيت ما كان من قيام علي بن أبي طالب (عليه السلام) والحسن والحسين (عليهم السلام) وخروجهم وقيامهم بدين الله وما أصيبوا به من قبل الطواغيت إياهم والظفر بهم حتى قتلوا وغلبوا، فقال أبو جعفر (عليه السلام): يا حمران إن الله تبارك وتعالى قد كان قدر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه، ثم أجراه، فتقدم علم رسول الله إليهم في ذلك قام علي والحسن والحسين (صلوات الله عليهم) ويعلم صمت من صمت منا، ولو أنهم يا حمران حيث نزل بهم ما نزل من أمر الله وإظهار الطواغيت عليهم سألوا الله دفع ذلك عنهم، وألحوا فيه في إزالة ملك الطواغيت إذا لأجابههم ودفع ذلك عنهم، ثم كان انقضاء مدة الطواغيت وذهاب ملكهم أسرع من سلك منظوم انقطع فتبدد، وما كان الذي أصابهم من ذلك يا حمران لذنب اقترفوه ولا لعقوبة معصية خالفوا الله فيها، ولكن لمنازل وكرامة من الله أراد أن يبلغها فلا تذهبن فيهم المذاهب بك. (١)

١١ - وفي موثوقة (٢) محمد بن الحسن، عن حماد،

١ - بصائر الدرجات: ١٤٤ - ١٤٥ ج ٣ ب ٥ ح ٣.
٢ - لموضع إبراهيم بن عبد الحميد.

عن إبراهيم بن عبد الحميد (١)، عن أبيه (٢)، عن أبي الحسن الأول (٣) (عليه السلام) قال: قلت له: جعلت فداك النبي (ص) ورث علم النبيين كلهم؟ قال لي: نعم، قلت: من لدن آدم إلى أن انتهى إلى نفسه؟ قال: نعم، قلت: ورثهم النبوة وما كان في آبائهم من النبوة والعلم؟ قال: ما بعث الله نبيا إلا وقد كان محمد (ص) أعلمه قال: قلت: إن عيسى بن مريم كان يحيي الموتى بإذن الله، قال: صدقت وسليمان بن داود كان يفهم كلام الطير قال (٤): وكان رسول الله (ص) بقدر على هذه المنازل فقال: إن سلمان ابن داود قال للهدهد حين فقد هو شك في أمره (فقال ما لي لا أرى الهدهد أم أكن من الغائبين) (٥) وكانت المردة والريح والنمل والإنس والجن والشياطين له طائعين، وغضب عليه فقال (لأعدبته عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينني بسلطان مبين) (٦) وإنما غضب عليه لأنه كان يدلّه على الماء

-
- ١ - واقفي ولكنه ثقة.
 - ٢ - كعبد الحميد بن سالم الثقة.
 - ٣ - الإمام الكاظم (عليه السلام).
 - ٤ - كذا في الأصل، وأغلب الظن هي تصحيف لكلمة قلت.
 - ٥ - النمل: ٢٠.
 - ٦ - النمل: ٢١.

فهذا وهو طير قد أعطي ما لم يعط سليمان، وإنما أرادته
ليدله على الماء فهذا لم يعط سليمان، وكانت المردة له
طائعين، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء وكانت الطير
تعرفه.

إن الله يقول في كتابه: (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال
أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) (١) فقد ورثنا نحن هذا
القرآن فعندنا ما يقطع به الجبال، ويقطع به البلدان
ويحيى به الموتى، بإذن الله ونحن نعرف ما تحت الهواء،
وإن كان في كتاب الله آيات ما يراد بها أمر من الأمور
التي أعطاها الله الماضين النبيين والمرسلين إلا وقد جعله
الله ذلك كله لنا في أم الكتاب، إن الله تبارك وتعالى
يقول: (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) (٢)، ثم
قال جل وعز: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من
عبادنا) (٣)، فنحن الذين اصطفانا الله فقد ورثنا علم هذا
القرآن الذي فيه تبيان كل شيء (٤).

١٢ - ورد بأسانيد موثوقة وصحيحة منها ما عن

١ - الرعد: ٣١.

٢ - النمل: ٧٥.

٣ - فاطر: ٣٢.

٤ - بصائر الدرجات: ١٣٤ - ١٣٥ ج ٣ ب ١ ح ٣.

الحسن بن علي بن النعمان، عن أبيه، عن ابن مسكان،
عن أبي بصير، عن أحدهما (عليهما السلام) قال: قلت له:
(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض) (١) قال:
كشفت له السماوات والأرض حتى رآها ورأى ما فيها
والعرض ومن عليه قال: قلت: فأوتي محمد مثل ما أوتي
إبراهيم؟ قال: نعم وصاحبكم هذا (٢).
وروي قريب منه بإسناد أحمد بن محمد، عن أبيه، عن عبد الله بن المغيرة،
عن عبد الله بن مسكان، عن
الإمام الصادق (عليه السلام) (٣).
وكذا عن البرقي، عن النضر بن سويد، عن يحيى
الحلبي، عن أبي بصير (٤).
١٣ - وفي صحيحة ثقة الإسلام الكليني، عن عدة
من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن عبد الله الحجال،
عن أحمد بن عمر الحلبي، عن أبي بصير قال: دخلت
على أبي عبد الله (عليه السلام) فلت: جعلت فداك إني أسألك

١ - الأنعام: ٧٥.

٢ - بصائر الدرجات: ١٢٧ - ١٢٨ ج ٢ ب ٢٠ ح ٥.

٣ - نفسه: ١٢٧ ح ٢.

٤ - نفسه: ١٢٧ ح ٤.

عن مسألة إلى أن قال: يا أبا محمد سل عما بدا لك،
قال: قلت: جعلت فداك إن شيعتك يتحدثون أن رسول
الله (ص) علم عليا (عليه السلام) بابا يفتح له منه ألف باب؟ قال:
فقال: يا أبا محمد علم رسول الله (ص) عليا (عليه السلام) ألف
باب يفتح من كل باب ألف باب قال: قلت: هذا والله
العلم قال: فنكت ساعة بالأرض ثم قال: إنه لعلم وما
هو بذلك.. ثم سرد حديثا طويلا إلى أن قال (عليه السلام): وإن
عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟ قال: قلت: وما
الجفر؟ قال: وعاء من آدم (١) فيه علم النبيين والوصيين،
وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل... إلى أن
قال (عليه السلام): وإن عندنا لمصحف فاطمة (عليها السلام)، وما
يدريهم ما مصحف فاطمة (عليها السلام)؟ قال: مصحف فيه مثل
قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف
واحد...

إلى أن قال (عليه السلام): إن عندنا علم ما كان وعلم ما
هو كائن إلى أن تقوم الساعة قال: قلت: جعلت فداك
هذا وآله هو العلم، قال: إنه علم وليس بذلك. قال:
قلت: جعلت فداك فأى شئ العلم؟ قال: ما يحدث
بالليل النهار، الأمر بعد الأمر، والشئ بعد الشئ إلى

١ - أي من الجلد.

يوم القيامة (١).

هذه باقة من مجموعة مئات الأحاديث والروايات الصحيحة والموثوقة والحسنة والمعتبرة التي تجمع على وجود الولاية التكوينية لدى المعصوم (عليه السلام) وبعدها هل يبقى لنا كر من حجة؟.

وإذا ما كانت هذه الروايات بمجموعها الكثير جدا قد خرجت على لسان المعصوم (عليه السلام) فإن الناصر لها لا يخلو من واحد من اثنين، فإما أن يكون منه لم يطلع على هذه الروايات وتلك الآيات، وعلى هذا الأساس لن يكون بالمستوى الذي يستحق أن تسميه صاحب علم لأن هذه الروايات موجودة في كتب يطلع عليها كل من سعى في المراحل البدائية لطلب العلم وأي كتب أشهر من كتاب الكافي، وكم من الرواة له شهرة محمد بن الحسن الصفار مؤلف كتاب بصائر الدرجات.

أقول هذا تاركا المجال للقارئ الكريم لأن يتأمل في أي قدرة للتحقيق الفكري لهذا الناصر، وهي العملية

١ - الكافي: ٢٣٨ - ٢٤٠ ح ١.

التي تحتاج إلى الوقوف على مجموع الأخبار والروايات، وتمحيصها قبل نكران المادة التي تحدث عنها. ولربما أراد الرجل تغليف جهله بالروايات بطابع من العلم حيث وسمها جميعا بالضعف في السند أو الدلالة فقال: وأما الأخبار الواردة في لذلك فهي ضعيفة سندا ودلالة (١).

وهذه الحجة المألوفة لا نصيب لها من أي صحة، فلا الروايات ضعيفة السند كما قد رأيت بعضها (٢)، ولا يرفضها، هذا على المستوى الأول، فكيف وأنا نجد في المستوى الثاني أن الكثير من آيات القرآن تؤكد الأمر حتى وكأن الروايات جاءت لتفسر تلك الآيات (٣).

١ - أنظر ردوده على أجوبة المرجع الديني الكبير آية الله العظمى الشيخ جواد التبريزي (دام ظله الوارف) على السؤال رقم ١١ من أسئلتنا ص ١٢.

٢ - اعلم أن الروايات الصحيحة والموثوقة والمعتبرة والحسنة والمؤيدة من الكثرة بمكان بحيث أنني لو أردت استقصاء جميع ما في الباب من حديث لاحتجت إلى كتاب جديد، لأنها مهمة تفوق حدود هذا الكتاب.

٣ - أنظر حديثنا اللاحق في شأن ما أسماه بالآيات المعارضة للولاية التكوينية.

ولعمري أراد الرجل إثبات علم فألبس نفسه رداء
الجهل حتى غيب أطرافه بكمية!!
وإما: أو يكون من غير المؤمنين أصلاً بسنة
المعصومين (عليهم السلام)، وبعقيدتهم، وكلا الأمرين على
سواء، فهي مما تجعل هذا الناصر خارج مصاف المؤمن
بولايته وإمامتهم (عليهم السلام).
وهي على أي حال تظهر بما لا مجال للشك فيه أن
هذا الناصر يبقى جاهلاً بعلوم أهل البيت (عليهم السلام)، مهما
ارتدى لعلومهم جلباباً.

الولاية التكوينية الشمول والتقييد
يبقى أمامنا بعد كل ذلك الجواب على سؤال قد
تبرزه طبيعة الحديث فيما سلف، وهو: إن الولاية التي
تحدثنا عنها هي شمولية بحيث أن المعصوم يمكنه من
التصرف بكل الظواهر الكونية في أي وقت شاء، أم أنها
مقيدة بجانب دون آخر؟.

وللجواب على ذلك يمكننا من خلال استعادة بعض
ما ورد في الصفحات السابقة أن طبيعة تصرف أصحاب
الشأن في هذا الباب كان متفاوتا، ففي وقت رأينا عجز
موسى (عليه السلام) عن التمتع بما لدى الخضر (عليه السلام)،
وعجز يعقوب عما لدى يوسف (عليه السلام) في قصة إلقاء
القميص، وعجز زكريا (عليه السلام) عما لدى مريم (عليه السلام)،
فإن ما من شك يتبقى في أن بعض هذه المقامات كل لها

ولاية محدودة، وهو أمر واضح بعد أن تبين لنا أن شأن الولاية التكوينية شأن اكتسابي يستطيع المرء أن يناله إن سلك الطريق المقتضي للحصول عليه، فسلوك طريق - أي طريق - يقتضي تعدد السائرين فيه تقدماً وتأخراً، الأمر الذي ينبأنا بأن البعض يستطيع أن ينال كثيراً، والبعض الآخر أقل منه وهكذا.

ولكن هل هذا يعني أن لا ولاية مطلقة لأحد؟. في الواقع تظهر لنا آية الولاية (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) وكذا الآيات التي تحدثت عن تعلق الوجود بوجود المعصوم (عليه السلام)، وكذا جملة كثيرة من الروايات أن الرسول (ص) الذي بلغ في عمله أعلى درجة الحسن في العمل وبالتالي تعلقت غاية الخلق بوجوده وفق مفاد الآية الكريمة (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) (١) أنه يستحق أن تكون ولايته مطلقة، فمن علق كل الكون بوجوده ما أسهل تصور أن ينقاد له هذا الكون كله، سيما وأنه بلغ من المنزلة عند الله ما لم يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل كما تظهر آيات سورة النجم الأولى، ولهذا يمكن القول أن ولاية الرسول (ص) على هذا الكون هي

١ - هود: ٧.

ولاية مطلقة، ومن ولايته نستنج تماثل ولاية أهل البيت
(عليه السلام) مع ولايته (ص) بناء على دلالات الآية الكريمة:
(أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم). (١)

١ - آل عمران: ٦١.

الباب الثالث
شبهات وردود

(٢٠٥)

نحاول في هذا الباب أن نرد على أهم الشبهات والإشكالات التي يجوبه بها هذا المفهوم، وأهمها ما يلي:

١ - هل الولاية تعني التفويض؟
يثير البعض أن الاعتقاد بوجود الولاية التكوينية يقتضي الاعتقاد بأنه ولاية تفويضية من الله إليهم، بمعنى إن الله قد فوض أمر الكون إليهم بعد خلقه، ولربما كان منشأ هذه الشبهة - التي أخذ بها الغلاة والمنكرون كل على حسب مراده - هو بعض الروايات التي قد يفهم منها هذا المعنى، (١) كما في موثوقة يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي أسامة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن الله خلق

١ - أنظر للمثال: بصائر الدرجات: ٣٩٨ - ٤٠٧ ج ٨ ب ٤ و ٥.

محمد (ص) فأدبه حتى إذا بلغ أربعين سنة أوحى إليه
وفوض إليه الأشياء. (١)
وكذا في موثوقة (٢) محمد بن عبد الجبار، عن
الحسن بن علي بن فضال، عن ثعلبة، عن زرارة أنه سمع
أبا عبد الله (عليه السلام) وأبا جعفر (عليه السلام) يقولان: إن الله
فوض إلى نبيه (عليه السلام) أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم (٣).
ولهذا قال أهل الإنكار بأن التفويض يستلزم
التعارض مع قدرة الله لأنهم تصوروا أن الولاية تعني أن
الله خلق ثم فوض شؤونهم إلى الأنبياء والأوصياء،
مما يستلزم تعطيل القدرة الإلهية، هذا الكلام مرادف
لكلام اليهود حينما قالوا: (وقالت اليهود يد الله مغلولة) (٤).
فيما تصور الغلاة أن التفويض يستلزم وجود ولاية
عرضية في قبال ولاية الله، وليست هي ولاية بالتبع لولاية

-
- ١ - بصائر الدرجات: ٣٩٨ ج ٨ ب ٤ ح ١.
 - ٢ - هي موثوقة لموضع ابن فضال منها، لكونه غير مقطوع بانصرافه من مذهب الواقفة رغم ثقته، وإن كنا نعتقد بانصرافه ضمن تفصيل ذكرناه في ترجمته ضمن تعليقاتنا على كتاب بحار الأنوار التي تضمنتها طبعة دار التعارف.
 - ٣ - ن. م: ٣٩٨ ج ٨ ب ٤ ح ٢.
 - ٤ - المائدة: ٦٤.

الله، الأمر الذي يفترض لأصحاب الولاية التكوينية نمطا من القدرات الخالقية والفاعلية بمعزل عن إرادة الله، ولهذا فرضوا لهم مقامات يغر مقاماتهم، وأنزلوهم منازل تبرؤوا من ادعائها.

وليس تنفيذ حجة الغلاة بعسير سيما إذا تطلعنا إلى إصرار القرآن على تأكيد مفهومين:

أولهما: التأكيد على بشرية الرسل وبالتالي الأوصياء كما في قوله تعالى: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار وخلالها سفيرا* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا* أو يكون لك بيت من زخف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كن إلا بشرا رسولا) (١)، وكذا قوله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد) (٢) وأمثال ذلك كثير، والتبع لمفهوم بشرية الرسول (ص) أكد القرآن على القدرة المحدودة للعلم البشري فقال عز من قائل: (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك

١ - الإسراء: ٩٠ - ٩٣.

٢ - الكهف: ١١١.

ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم) (١)، وكذا قوله تعالى: (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي) (٢)، وكذا قوله تعالى: (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا شرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) (٣)، وأمثال ذلك مما تفيض به آيات الكتاب العزيز.

ولكنه مع تأكيده على بشرية الرسل قام بتأكيد المفهوم الثاني من خلال التحدث عن الولاية التكوينية ولكن من خلال وضعها تحت إطار إذن الله كما في حديثه عن آيات عيسى (عليه السلام) الكونية (ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بأية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لأية لكم إن كنتم مؤمنين) (٤) وكما في قوله تعالى: (إذ أقل الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذا

١ - هود: ٣١.

٢ - الأنعام: ٥٠.

٣ - الأعراف: ١٨٨.

٤ - آل عمران: ٤٩.

أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيا فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذا جئتهم بالبينات) (١)، ومثل هذا التأكيد يؤكد أن عملية التفويض المشار إليها في حديث الغلاة مناقضة للمفهوم القرآني، فلا القرآن يعطي لرسول استثناءات خالقية، ولا هو يجعل إرادته الإعجازية بمعزل عن إرادة الله بل يجعلها مرهونة بإرادة الله. على أن من الواضح أن حديث الغلاة يجرنا إلى مطبات الإشراف بالله وثلم شمولية التوحيد الإلهي، وهذا ما لا يقر به عاقل، فضلا عن مسلم. وليس حديث المنكرين بأعسر في الرد من حديث الغلاة، فلو كان التفويض بمعنى عزل قدرة الله عن قدرة أنبيائه ورسله وأوليائه، فهذا ما لم يقل به أحد من الإمامية، وكيف يقال عنهم ذلك وهم من عرفوا بأنهم أصحاب مبدأ: (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين)، ولهذا لا ينقض العجب حينما تسمع من يردد

بأن عقيدة الولاية التكوينية مرادفة لهذا الاعتقاد فيقول بلهجته العامية: (الولاية التكوينية شنو (١) الولاية التكوينية، إحنة (٢) بنقول ولاية تكوينية يعني بعض الناس بيقول أنه يعني الأنبياء والأئمة مشاركين الله مثل ما الله ولي الكون هنة (٣) أولياء الكون!! (٤)). ونحن إذ نؤكد أن هذا الكلام كذب وتزوير للمفهوم كما هو واضح من مطاوي البحث، فليس ثمة من يقول بتفويض من هذا القبيل، بل إن الذي يقول ذلك يعد لدى الإمامية من الغلاة الذين يتبرؤون منهم ويلعنونهم، وما قصة لعن المغيرة بن سعيد العجلي وجماعته المغيرية وابن أبي زينب الخطاب الأسدي وفرقة الخطابية الوارد على لسان الإمام الصادق والكاظم والرضا (ع) إلا بسب إيمانهم بهذا المفهوم وأضرابه. وكيفما يكن فإننا نعتقد إن التفويض المشار إليه هنا يستلزم نفي التنزيه الإلهي لهذا فهو مرفوض، أما ما ورد

-
- ١ - بمعنى ما هي.
 - ٢ - بمعنى نحن.
 - ٣ - بمعنى هم.
 - ٤ - من شريط مسجل بصوت المتحدث نحفظ به.

في الروايات الآنفة، فالتفويض المشار إليه لا يستلزم
الاستقلالية عن الإرادة الإلهية، وإنما هو بالتبع لها وفي
طولها.

١ - هل الولاية فعلية أم إنشائية؟
تتمحور هذه الشبهة بالتأكيد على أن هذه الولاية
ولاية إنشائية، وليست فعلية بمعنى إنها إن أعطيت لأحد
فلا تعطى إلا بعد بروز الحاجة إليها إن برزت، لا بمعنى
أنها تمنح لصاحبها منحاً إلهياً بحيث أنه يستطيع أن
يتصرف بشؤونها متى ما شاء، ولست بمسبوق بأن أحداً
قبل مثيرها قد أثار هذه الشبهة، فقد تحدث عن ذلك
بالقول عن شخصية الرسول (ص) بما نصه: (إنه لا يملك
علم الغيب في تكوينه الذاتي، ولا في الواقع الفعلي
بشكل مطلق، فهو لا يعرف - من خلال هذا النص

القرآني (١) - ماذا يحدث له في الغد من عافية وبلاء، وضعف وقوة، وذلك من خلال الفرضية الواقعية، وهي أنه لو كان يعلم الغيب في طاقته العلمية لأمكنه أن يجلب الخير لنفسه ويستكثر منه من خلال اطلاعه على فرص الغيب في الحاضر والمستقبل، وأن يدفع عن نفسه السوء الذي تجتمع عناصره الآن وغدا، ولكن الواقع أن البلاء قد يصيبه بشكل مفاجئ، وإن الخير قد لا يحصل لديه من خلال العناصر الخفية في الزمان والمكان والأشخاص (٢)، لأن هذه المسألة لا تتصل بمهمته الرسالية في الإنذار والتبشير، لأن ذلك لا يرتبط بعلم النبي للغيب في واقع الحياة.

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين) (٣) فإنها تدل على نفي الفعلية في واقع الذات وحصار المسألة فيما يأتيه من الوحي، فهو

-
- ١ - قوله تعالى: (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون).
 - ٢ - سنتعرض لهذه الشبهة لاحقا.
 - ٣ - الأحقاف: ٩.

خارج هذا النطاق لا يملك علم الواقع من ناحية فعلية، وبهذا يرد على ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن علم الغيب المنفي عن غير الله وارد على نحو الأصالة فلا ينافي علم غيره بالتبعية مما يصدر منه، فإن الظاهر من كل الآيات نفي العلم الذاتي حتى على نحو التبعية (١) بمعنى جعل النبي علاما بالغيب بحيث يملك علم الغيب في ذاته بقدرة الله في عطائه له كما أعطاه ملكاته الأخرى بل المسألة هي مسألة مفردات الغيب في حاجاته له من خلال الوحي أو بطريقة أخرى.

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نجد في النص القرآني الرد على الفكرة تجعل للنبي الولاية على الكون بأن يغيره ويبدله ويتصرف فيه من خلال القدرة العظيمة التي أودعها الله في شخصه ما يطلق عليه اسم (الولاية التكوينية) وإن هذه الفكرة لا تلتقي بالنصوص القرآنية.. إلى أن يقول: (وعلى ضوء ذلك فلا مجال - في النص القرآني - لفكرة (الولاية التكوينية) للنبي أو للأنبياء كافة، وإذا كان الله قد أعطى للأنبياء القيام بالمعاجز فإنها تتصل

١ - ولكن أين تضع علم الخضر (عليه السلام) حينما عبر الله عن علمه بالغيب (فوجدنا عبدا من عبادنا أتيناك رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) [الكهف: ٦٥].

- بشكل مباشر - بحاجة النبوة إلى ذلك أمام التحديات
الموجهة إليهم). (١)
وقال في مكان آخر: إن قوله تعالى: (قل لا أملك
لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله) (٢). ظاهرة في نفي الفعلية
لا في نفي الاستقلال. (٣)
وهنا رغم أننا نجد أن الكاتب يثير أكثر من شبهة،
إلا إننا هنا سنقتصر على شبهة نفي فعلية الولاية،
وسنعالج البقية في مواضعها، ومعالجة هذه الشبهة لها
أكثر من طريق، فهي أولا ليست مبرهنة ولا دليل علمي
عليها، وما أسماه بالدليل مردود جملة وتفصيلا كما رأينا
وسنرى في البحث القرآني، فما الموجب لأن تكون
إنشائية خصوصا أن القرائن العقلية والقرآنية تقف إلى
الضد من ذلك وتكذبها؟ وما المانع لأن تكون فعلية
لا سيما وأن هناك من القرائن الداعمة لأمر الفعلية المؤكدة
لها ما يفوق العد والحصر؟ فالرب الذي إئتمن لرسول

-
- ١ - صورة النبي محمد (ص) في القرآن الكريم، محمد حسين
فضل الله، مجلة الثقافة الإسلامية العدد: ٦٥ ص ٧١ - ٧٢.
٢ - يونس: ٤٩.
٣ - أنظر ردوده على أجوبة المرجع التبريزي (أعلى الله مقامه):
١١.

على دينه وخلقه وكتابه، ما المبرر لأن يمنحه شيئاً دون ذلك من الأهمية ثم يسترده؟ وما هو المحذور من بقاءه بحيث إننا نشير هذه الزوبعة؟ فمن الناحية العقلية يظهر المنح الإنشائي وجود المؤهل الذاتي، وهذا المؤهل إن أمكن وجوده في مرة أمكن إيجاده في مرات، بمعنى إن القرآن إذ يظهر لنا أن الولاية منزلة يبلغها ن يمكن أن تسلب منه كما رأينا في آية: (وأتل عليهم نبأ الذي أتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) فهي أيضاً منزلة يمكن أن تتعاضم، كما تظهر آية: من (عنده علم من الكتاب) كيف أن لديه مقدار من علم الكتاب، فيما نجد آية من عنده علم الكتاب تلغي ذلك التبويض للتحديث عن شخصية أخرى لديها علم الكتب كله، (١) وهذا التفاضل يظهر أن الولاية شأن يمنح بناء على مواصفات ذاتية، وما دام الأمر على هذا النحو، فما المانع إن ظل المؤهل الذاتي - الذي منح الإنسان على ضوء الولاية لمرة - موجوداً في أن تظل هذه الولاية، هذا فضلاً عن أن تتعاضم إن زادت قدرات وكفاءات هذا المؤهل؟.

ومن كل ذلك نستخلص أن المبرر في نفي الفعلية

١ - أنظر للتفصيل كتابنا من عنده علم الكتاب؟.

لا وجود له خصوصا مع معرفة حقيقة أن من يمنح هذه
الولاية إنما يمنحها وفقا لكفاءاته في التوحيد الإلهي
العملي، وكلما ازداد يقينا في شؤون التوحيد، ازدادت
منزلته في هذا المجال، الأمر الذي يعني أن الممنوح هو
الذي يدافع عن فكرة عدم استقلالية إرادته ما تظهر الآية
الكريمة: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني
وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي
بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك
إنك أنت علام الغيوب) (١) فتأمل!.

هذا ثانيا على أن كل ذلك لا يختص بالجنبه العقلية
وإنما تعضده جملة كبيرة من الآيات القرآنية الواضحة
الدلالة على أن شأن الفعلية ثابت، ولربما من أوضح هذه
الآيات هي آية: (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم
أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت
الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل
بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك
بغير حساب) (٢) فبعد تعداد جملة من شؤون الولاية جاءت
الآية الأخيرة للتحدث وبمنتهى الوضوح عن أن هذا

١ - المائة: ١١٦.

٢ - ص: ٣٤ - ٣٩.

العطاء الرباني موكول إلى سليمان (عليه السلام) يتصرف به
كيفما يشاء، وحيث ما يمنح له هذا لقدرة فإنه لا ريب
ينجر إلى أنه (عليه السلام) يستطيع فعله متى ما شاء.
وكذا الأمر في مسألة عيسى (عليه السلام) التي تشير إليه
الآيات القرآنية بوضوح تام أيضا: (ورسولا إلى بني إسرائيل
أنني قد جئكم بأية من ربكم أن أخلق لكم من الطين كهيئة
الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه
والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في
بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) (١) وكذا قوله
تعالى: (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى
والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا
وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من
الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ
الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت
بني إسرائيل عنكم إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن
هذا إلا سحر مبين) (٢) فلو لم تكن الولاية فعلية لما كان
بإمكان عيسى (عليه السلام) أن يتحدث مع قومه بهذه الطريقة
التي قد تتكرر في كل آن، وفي كل مكان كان يحل فيه

١ - آل عمران: ٤٩.

٢ - المائدة: ١١٠.

عيسى (عليه السلام) وليس عيسى (عليه السلام) بأفضل من الرسول (ص).

وتنطوي قصة عرش بلقيس هي الأخرى على أمور هامة لمبحثنا هذا، في تأكيدها على فعالية الولاية، فقد قال الله جل وعلا على لسان سليمان (عليه السلام): (قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين* قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين* قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) (١).

فهنا نجد أطرافا ثلاثة تتجاذب الحديث حول

موضوع محدد وهو جلب عرش بلقيس من اليمن إلى قصر سليمان (عليه السلام) في بلاد الشام أو بلاد فارس على مفاد بعض الروايات، وهذه الأطراف هي سليمان (عليه السلام) الذي يطالب مجالسيه بأن يأتوه بعرش بلقيس، عد ذلك ينبري عفريت من الجن، وحسب الظاهر كان هذا هو كبير الجن المسخر أمرهم بيد سليمان (عليه السلام) فيقول إنه يأتي بالعرش قبل أن يقوم سليمان من مجلسه هذا، وهذا الأمر رغم ما فيه من إغراء عظيم في الإمكانية، ورغم ما فيه من

١ - النمل: ٣٨ - ٤٠.

ضحامة في استعراض القوة، لا يروق لسليمان (عليه السلام)،
فيحس بغرضه وزيره ووصيه (الذي عنده علم الكتاب)
هو آصف بن برخيا - كما تشير إلى ذلك الروايات -
فيعرض استعداده للإتيان به قبل أن تطرف عين سليمان،
وربما تشير القدرة التصويرية الفائقة في تعبير آصف: (أنا
أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) على أنه كان يمتلك القدرة
على الاستفادة من إمكانات تفوق إمكانات الزمان
والمكان، وإنه إنما جاء بكلمة قبل الظرفية، من أجل
تقرب صورة انعدام الزمن لذهن البشري الذي لم يألّف
انعدام الزمن فتأمل! (١) ..

١ - من الطريف أن الإمام الهادي (عليه السلام) سئل من قبل أخيه
موسى المبرقع (رحمه الله) عن السر الذي جعل سليمان (عليه السلام) لا
يأتي بالعرش هو بنفسه وذلك تعقيبا لسؤال سأله عنه يحيى
ابن أكثم حيث قال للمبرقع: (أنبي الله كان محتاجا إلى علم
آصف)؟ فكتب الإمام جوابا لأسئلة ابن الأكثم: سألت عن
قول الله عز وجل: (قال الذي عنده علم من الكتاب) فهو آصف
ابن برخيا لوم يعجز سليمان من معرفة ما عرف، لكنه أحب
أن يعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجّة من بعده وذلك
من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا
يختلف في إمامته ودلالته كما فهم سليمان في حياة داود
ليعرض إمامته ونبوته من عبده لتأكيد الحجّة على الخلق.
[الاختصاص: ٩٣].

وقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): وقد أخبرنا الله
سبحانه عن آصف بن برخيا وصبي سليمان (عليه السلام) وعن ما
أتى به من المعجز من عرش ملكة اليمن وكان سليمان
(عليه السلام) يومئذ بيت المقدس فقال وصيه: (أنا أتيك به قبل أن
يرتد إليك طرفك) وارتداد الطرف ما لا يتوهم فيه ذهاب زمان
ولا قطع مسافة، وكان بين بيت المقدس والموضع الذي فيه
عرشها باليمن مسيرة خمسمائة فرسخ ذاهبا وخمسمائة
راجعا، فأتاه به وصية من هذه المسافة قبل ارتداد الطرف،
فلو فعله سليمان لكان معجزا له، فلما أراد أن يدل أهل
زمانه على وصيه ومن يقوم مقامه بعده، قام به وصيه [بإذن
الله] وهذا أقوى من النص. [الخرائج والجرائح: ١٧ -
١٨].

ولو لم تكن لدى ابن برخيا المقدرة الفعلية على
الفعل الذي أخبر عن إمكانية النوء به حتى من دون شفعه
بالإذن الإلهي الذي استبطنه، لما تعهد بهذا العمل الذي
لا يمكن تعقله في الحساب المادي، ومعلوم أي دلالة
يمكننا أن نستوحيها من استباق الكلام بكلمة: (أنا آتيك
به).

هذا ثالثاً، ولقد لحظنا رابعاً فيما روى الصادقين
من آل محمد (عليهم السلام) فيما ذكرنا من روايات أن مجموعها
يؤكد على وجود الفعلية في هذا الولاية، ولا يوجد أي

مسوغ شرعي ولا في مقتضيات علم الحديث لرد كل
تلکم الأحاديث الشريفة المجمع على صحتها وموثوقية
صدروها.

على أن ما ذكره من آيات قرآنية مفسر بكل ما ذكرنا
من قرائن قرآنية وروائية وعقلية، فهي وإن نفت علم
الغيب عن الرسول وعدم تمكنه من إجابة مقترحات
المشركين، إلا أنها تحمل ضرورة على نفي الاستقلالية
عن الإذن الإلهي وهو أمر جوهري في التبرية التوحيدية،
وواضح أن الآيات لا يمكن حملها على الاطلاق لوجود
مقيدات جلية في الآيات التي ذرنا، والتي تشير إلى
وجود قدرة التصرف في شؤون الولاية.

يبقى أمامنا شئ وهو أن الولاية إن سيقى بمعنى
الإنشائية وليست الفعلية، فلا مندوحة من أنها ستلقينا في
متاهات بحث الجبر، فلا يمكن تصور الإنشاء هنا من
دون أن تواجهنا مشكلة الجبر في إرادة المعصوم (١)،

١ - وهو نفس الأمر الذي وقع فيه صاحب الشبهة في موضوع
العصمة، حينما قال بأن العصمة جبرية، كما تحدث عن
ذلك في مقاله: (مع الشيخ المفيد في تصحيح الإعتقاد
المنشور في العدد التاسع من مجلة الفكر الجديد الصادرة في
لندن عن دار الإسلام ص ٦١ - ٦٢، وقد تحدثنا عن هذه
الشبهة استعراضا وتفنيدا في محاضراتنا عن العصمة، والتي
ستجد طريقها إلى الطابعة عما قريب بحول الله).

ومعلوم أن الجبر في الإرادة الإنسانية مرفوض لدينا أتباع
مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

٣ - لماذا لم يستخدم المعصوم (عليه السلام) الولاية لو كانت لديه؟
أشار نفس صاحب المقال السابق إلى شبهة أخرى، وهي أن المعصوم لو كانت لديه قدرة التصرف بشؤون الولاية التكوينية لأستخدمها في جلب الخير لنفسه ومنع الضرر عنها، ويساوقه في هذه الشبهة الشبهات التي تتحدث عن أن المعصوم (عليه السلام) لو كان لديه علم خاص لما تعرض للأذى والقتل وما إلى ذلك، فبإمكان النبي (ص) أن يدفع عنه أذى قريس وثقيف والأحزاب، وبإمكان الأئمة (عليهم السلام) أن لا تقع عليهم كل هذه المظالم لو كانوا يعلمون مثل هذا العلم الخاص.
ولربما يعود منشأ هذه الشبهة هو أن المنكرين

يستصبحون أفهامهم وقيسون المعصوم (صلوات الله عليه) على هذه الأفهام، ولهذا تجدهم يتساءلون عن المبررات الواقعية لحركة الإمام (عليه السلام) بحيث أنهم إن لم يجدوا مثل هذه المبررات في أذهانهم دعوا إلى إهمالها فها هو محمد حسين فضل الله يقيس بفهمه أقوال الأئمة (عليهم السلام) حتى إذا لم يجد ما يتناسب مع هذا الفهم يدعو إلى إهمال مفادات هذه الأقوال، ففي حديثه عن علم الإمام (عليه السلام) والولاية التكوينية والرجعة والبداء قال: لكن التأمّل يفرض علينا - بالإضافة إلى ذلك أن نجد تفسيراً للمضمون الفكري من حيث انسجامه مع طبيعة الأشياء المتصلة بالمضمون، وذلك كما هو الحديث عن مسألة الولاية التكوينية التي يذهب إليها الكثيرون من علماء الإمامية انطلاقاً من الأحاديث الدالة على ذلك (١)، ومن عدم وجود أية ممانعة عقلية في تجويزها (٢)، فقد يبرز سؤال في ذلك عن ضرورتها، ما دامت الرسالة التي أمروا بالحفاظ عليها، كما أمر النبي (ص) بتبليغها لا تفرض

١ - إرجع إلى حديثه عن الأحاديث الضعيفة السند والدلالة المار
آنفاً!.

٢ - أنظر إلى تناقضه الآخر مع نفسه حينما يعتبر الولاية
التكوينية: (قضية فلسفية أساساً ما حدا بيعرفه (لا يعرفها
أحد)). (من شريط بصوته نحتفظ به).

ذلك، وما داموا لم يمارسوها في حياتهم بشكل آخر، لا سيما أن النبي (ص) ينفي عن نفسه هذه القدرة فيما حدثنا القرآن عنه في جوابه للمشركين الذي اقترحوا عليه القيام ببعض الأفعال الخارقة للعادة وذلك بقوله: (سبحان رب هل كنت إلا بشرا رسولا) (١) ما يوحي بأن الرسولية لا تفرض وجود مثل هذه القدرة في دوره ومهمته. ويستمر فيقول: وهكذا نجد السؤال يفرض نفسه في الأحاديث التي تدل على أن الله خلق الكون لأجلهم، فإننا لا نستطيع أن نجد له تفسيراً معقولاً حتى على مستوى المضمون في لتصور الفكري، فهل القضية واردة فنطاق التشريف، أو في نطاق الدور الرسالي، أو في نطاق الهداية أو ما إلى ذلك؟. إن القضية ليست في الحديث عما هو في الممكن والمستحيل في الجانب التجريدي من حيث الحكم العقلي، بل هي في إيجاد المبررات الواقعية للمضمون على أساس العلاقة بين النبوة أو الإمامة وبين هذه الأمور لا بد، أن يرد علمه إلى أهله، فإن ذلك يفرض علينا إهماله وعدم اعتباره من أصول العقائد باعتبار أن

العقيدة لا بد أن تمثل وعيا في الفكر وقناعة في الوجدان. (١)

١ - أنظر مع الشيخ المفيد في تصحيح الإعتقاد: ١٣ المنشور في العدد التاسع من مجلة الفكر الجديد، وكذا المنشور في العدد ٢٨ - ٣١ من مجلة المعارج: ٣٢٧ - ٣٢٨. ولا أدري أي أقواله أكثر عجبا، ولكن في مقتضى القول الأخير سندعو من لا دراية له في مسائل العقائد أن يهملها ولا يترك الأمر إلى أهله!

على أن هؤلاء الذين يقولون بوجوب ترك الأمر إلى أهله والذين وصفهم ب (البعض) هم أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وعنهم جاءنا الخبر الصحيح الذي يرويه أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن جميل بن صالح، عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سمعته يقول: أما والله إن أحب أصحابي إلي أروعهم وأفقههم وأكتمهم بحديثنا وإن أسوأهم عندي حالا وأمقتهم إلي الذين إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يعقله ولم يقبله قلبه، اشمأز منه وجحدته وكفر بمن دان به وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، وإلينا سند، فيكون بذلك خارجا من ولايتنا. (بصائر الدرجات: ٥٥٧ ج ١٠ ب ٢٢ ح ١).

وكذا ما ورد عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل، عن جعفر بن بشير، عن أبي بصير، عن أبي جعفر (عليه السلام) (أو أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لا تكذبوا بحديث أتاكم [به ظ] أحد فإنكم لا تدرن لعله من الحق، فتكذبوا الله فوق عرشه.

(بصائر الدرجات: ٥٥٨ ج ١٠ ب ٢٢ ح ٥).

وهؤلاء الذين وصفهم بالبعض هم الواجب لدينا - نحن شيعة أهل البيت - اتباعهم وإطاعتهم في كل ما يقولون!! وهو مفاد وقوله تعالى: (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) [النحل / ٤٣]. فتأمل!!

ولا أحسب أن هذه الشبهات بأقل وهنا من سالفاتها، وحيث أن تلك الشبهات أظهرت عيا واضحا في فهم القرآن، وإعراضا صريحا عن سنة المعصوم (ع)، فإذا هذه الشبهة تظهر علاوة على ذلك قصورا جليا في فهم المعصوم (عليه السلام).
والجواب عنها يتمحور أولا في ضرورة تشخيص طابع الضراء وطاب السراء، فمن الواضح أن الضراء والسراء من المفاهيم الاعتبارية، أي إن تفاعلها مع النفس الإنسانية يختلف من شخص لآخر حسب الاعتبار والأهمية التي وليها هذا الشخص أو ذاك لمصداق الضر والخير، فلربما كان البعض ممن يحسب أن كسب المال هو قمة الخير بينما لا يوليه الآخر نفس هذه القيمة، لأن المال لديه ليس بنفس القيمة الموجودة في نفس الأول، بل قد نجد أن البعض قد يعد المال مصداقا من مصاديق

الضر، ولربما كان البعض من سحب أن التعرض إلى
البلاء الفلاني هو قمة الضر، فيما بعده البعض الآخر ليس
بهذه الصورة من الشر أو قد يحسبه البعض من صور
الخير، كما في تعرض الجبان إلى الموت، وإقدام
المجاهد عليه.

وهذا هو مفاد الآية القرآنية (كتب عليكم القتال
وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن
تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (١)، وكذا قوله تعالى: (فعسى أن
تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه كثيراً). (٢)
ومثلما يصح هذا الأمر على المصداق في وقت، قد
نجد أن الموقف من هذا الأمر على المصداق في وقت، قد نجد أن الموقف من هذا
المصداق هو غيره في وقت
آخر، كما أشار الإمام المهدي (عليه السلام) في دعاء الافتتاح:
(ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي).

ولهذا نرى أن الإفهام في موقفه من الخير والضر
تبقى متفاوتة، وهو الأمر الذي يعكس حالة المواقف
الإرادية المتفاوتة تجاه مسائل الخير والضر، وأسباب
ذلك متعددة، منها ما يعود إلى طبيعة العلم بالمفهوم،

١ - البقرة: ٢١٦.

٢ - النساء: ١٩.

كأن يعرف الإنسان أن هذا المفهوم يعني له الضرر أو غيره، ومنها ما يعود إلى طبيعة الإنسان وموقفه من المفهوم، يمكن

أن يغفل هذا الإنسان عن حقيقة هذا المفهوم، والعكس بالعكس، وعليه فليس في المقدور تشخيص المفهومين إلا بمقدار اقتراب الإنسان من الحقيقة اليقينية، وإدراكه لمقاصد الشارع المقدس في حال ارتباط الموضوع في الأمور الرسالية، ولهذا تجد الإنسان إذا ما وعى شيئاً يقينياً، فإن ردة الفعل الغالبة ستكون واحدة، كما هو الحال لمن عرف أن النار محرقة، عندئذ سنجد هذا الإنسان لن يقترب منها.

من هذا المنطلق نقول إن تشخيص ما نتصوره ضراً قد يكون لدى غيرنا هو الخير بعينه، ولهذا فتصورنا في أن المعصوم (عليه السلام) علم يبحث عن الخير مسألة متوقفة ويغتر تامة، لأننا لم ندرك كنه الخير الذي في إدراك المعصوم، خصوصاً وأنه لا يدخل في حساباته البعد الذاتي في شخصيته، وإنما ينظر دائماً وأبداً إلى مصالح العهد الرباني الذي بين يديه، وهو لم ينله إلا بعد أن آلى على نفسه أن يتحمل الضرر في سبيل مصلحة العقيدة والرسالة الربانية، وهذا ما توضحه الآية الكريمة: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا

يوقنون) (١) ومعلوم أن مصالح الشريعة لا تدرك بالضرورة من غير المعصوم (عليه السلام)، ولهذا فإن كان المعصوم يعتبر خدمة الشريعة تفوق في الاعتبار أي ضرر شخصي يتوجه إليه، فإنه سوف يتحمل هذا الضرر بكل رضا، وما أروع النبي يوسف (عليه السلام) حينما يعبر عن هذا المفهوم بقوله: (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) (٢)، فهو يتحمل ضراء السجن وما يترتب عليه، من أجل خدمة العقيدة والرسالة الموكلة إليه، ولا يتحمل ذلك فحسب، وأنا يذهب إلى حد حب هذا الضرر وطلبه.

ومن قبل يوسف (عليه السلام)، كان لنا قصة ذبح إسماعيل من قبل إبراهيم (عليهما السلام) المشار إليها في الآية الكريمة: (فلما بلغ معه السعي قال يا بني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) (٣)، فهنا نجد الأب إبراهيم، والابن إسماعيل (عليهما السلام) في مقام الرضا والتسليم بالضرر الظاهري.

١ - السجدة: ٢٤.

٢ - يوسف: ٣٣.

٣ - الصافات: ١٠٢.

وعليه يمكن عندئذ أن ندخل الكثير من موارد التصرف بشؤون الولاية التكوينية في مضمار جلب الخير ودفح الضرر، ألا تحسب معي أن سليمان حينما جلب عرش بلقيس ضمن مقاييس التصرف بالولاية قد جلب الخير لنفسه، مع ملاحظة أن نفسه هنا قد تمازجت مع رسالته بحيث أصبح الاثنان واحداً، وهذا هو مقام الخالص من أولياء الله، وهو لمفاد الذي جعل القرآن الكريم يمازج ما بين نفس النبي (ص) ونفس الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله تعالى في آية المباهلة: (وأنفسنا وأنفسكم) (١).

على أننا ينبغي أن نعي حقيقة أن التفاضل المطروح بين الأولياء، إنما هو في الصبر على البلايا، ولهذا تجد منهم من أثر أمر تحمل العناء على أمر التصرف بشؤون الولاية التكوينية مع قدرته عليه، كما نجد ذلك في قص نوح (عليه السلام)، لذلك أثني عليه وصف بالمحسنين كما توضحه الآية الشريفة: (سلام على نوح في العالمين)* إنا كذلك نجزي المحسنين) (٢)، ووصف المحسنين إنما يمنح لمن

١ - آل عمران: ٦١.

٢ - الصفات: ٧٩ - ٨٠.

يقوم بأداء الحق، فلا يكتفي بالذي عليه من الحق، بل
يعمد إلى تنجيز ما هو أكثر منه، ومنهم من لم يتحمل
ذلك، فأثر العكس ولم يصبر كما في قصة يونس
(عليه السلام)، لذلك عوتب من قبل الله جل وعلا وهذا ما
يفيدنا أن النبي والأئمة حينما قبلوا بمبدأ استقبال
البلاء والضراء فبسبب رغبتهم في التفاضل والتمايز، وقد
مر معنا قبل ذلك من روايات صحيحة أن الإمام علي
والحسن والحسين (عليه السلام) لو أرادوا التخلص من الظلم
الذي حيق بهم، لدعوا الله ونجاهم منه، ولكنهم لم
يفعلوا ذلك لطلبهم المنزلة التي يريدونها من الله، والتي
لن ينالونها إلا من خلال قبول البلاء والصبر عليه توخيا
لمصلحة الشريفة، وحينما لا يتصرفون بالشأن الكوني
نصرة لأنفسهم رغم استطاعتهم، إنما يعبرون عن مدى
تسابقهم عن رضوان الله الأكبر، وتفانيهم في ذاته وفي
عشقه، وهو أمر لا يتمكن من إدراكه إلا من تذوق
حلاوة التفاني في ذات الله (عظمت آلاؤه وتقديست
أسمائه)!

فهاهو إبراهيم (عليه السلام) صاحب معجزة النار التي
صارت بردا وسلاما كما في حديث القرن حتى في أشد
الحالات هلعا وفي الظروف التي يمكن للإنسان أن
يتشبث بكل شيء وإن وهن هذا الشيء تراه وهو في

الحالة التي يرمي بها إلى موقد النار العظيم الذي اصطنعه له نمرود، يأتيه مثل جبرئيل (عليه السلام) (١) فيقول له كما يحدث الشيخ الصدوق في صحيحته عن أبيه، عن سعد ابن عبد الله الأشعري، عن يعقوب بن يزيد، عن محمد ابن أبي عمير، عن أبان بن عثمان، عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: أخبرني أبي، عن جدي، عن النبي (صلوات الله عليه) عن جبرئيل (عليه السلام) في

إلى
النار الهواء وهو يهوي إلى
النار، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟! فقال: أما إليك
فلا!! فيما ظل منشغلا بمخاطبة الله كما تنص بقية
الخبر. (٢)

ولربما هذا هو سر الذي جعل الرسول (ص) وآل بيته (عليه السلام) لا يستخدمون قدراتهم الولائية، لأنهم آثروا الصبر والتحمل على ما سواه، خصوصا إذا ما كان تحمل الضرر الدنيوي يقدم خدمات نوعية للرسالة، والتأمل الأولي في مفاد قول الإمام الحسين (عليه السلام) لأخيه محمد

١ - لاحظ هنا أن جهة الإنقاذ لها قوة كقوة جبرئيل، ومن له قوة إنقاذ كجبرئيل لا يركن إلى أساس ضعيف.

٢ - قصص الأنبياء لقطب الراوندي: ١٠٤ ب ٤ ح ٩٧.

ابن الحنفية (رضوان الله عليه) وهو يودع المدينة خارجا إلى كربلاء: (شاء الله أن يراني قتيلا) وعن نسائه: شاء الله أن يراهن سبايا).. ولعل في هذا كله ما يكشف لنا بعضا من أسرار قول الرسول الأعظم (ص): ما أؤذي نبي مثلما أؤذيت، فالذي يتأذى على شيء يتمكن من رفعه إن أراد، غير ذلك الذي يتأذى على أمر لا يستطيع رفعه، فلا تغفل!

ونلفت الانتباه هنا في الخاتمة إلى أن المعصوم (عليه السلام) حينما يتصرف بالشأن الكوني فليس من أجل مصالحه الشخصية، وإنما من أجل المصالح النوعية التي يتوخاها خدمة لرسالته، وحيث أن هذه المصالح - في مقاصدها الكلية - لا تدرك من قبل الناس إلا ن خلال نص

تصرفه (صلوات الله عليه) من خلال استصحابنا لحالات الضر والخير التي نرقبها في أفهامنا، وإذا كان مثل موسى (عليه السلام) قد حجب عنه العلم الذي كان للخضر (ع) فراح يلاحقه بناء على مقتضيات التشريع الظهيرية، أفلدينا قدرة على الادعاء بأننا نفهم كل ما عمد إليه الإمام المعصوم (عليه السلام) الذي هو إمام إن قام وإن قعد!! ما لكم كيف تحكمون!!؟

ورغم أن الحديث عن هذا الموضوع يقتضي أن
يجرنا إلى الحديث عن هوية علم المعصوم (عليه السلام)، إلا
أننا سنخصص له بحثا مستقلا بعون الله.

٤ - علم المعصوم (عليه السلام)
تتبنى مدرسة أهل البيت (عليه السلام) على أن المعصوم
(عليه السلام) له علم خاص به، يتميز به على جميع خلق الله،
وهذا العلم لا يختص بزمان ولا مكان، بل هو علم ما
كان وما سيكون إلى يوم القيامة (١)، ورغم أن موضوع
علم المعصوم (عليه السلام) يحتاج إلى حيز أكبر من هذا الكتاب
إلا أن ارتباطه بموضوع البحث جعلنا نفردها هذا المقدار
المخصص للرد على شبهة المشكك بذلك، تاركين الأمر
للأبحاث المتخصصة (٢).

١ - هذا البحث موجه إلى المعتقدين بإمامة أهل البيت (عليهم السلام
(فقط، أما غيرهم فإن الحديث له وجهة أخرى ليس مجالها
هذا الكتاب.

٢ - لعلنا نتوفر على توفيق البحث المستقل عن الموضوع في
فرصة قريبة إن شاء الله، وقد اطلعت مؤخرا على كتاب
(بحث حول الجفر وعلم المعصوم) عليه السلام (من خلال الآثار)
للسيد عمار صدر الدين شرف الدين، وبمقدار الاطلاع
العاجل على الكتاب وجدته ملما بالكثير من أطراف
الموضوع من وجهة النظر الإمامية، فليراجع لمن أراد
الاستزادة.

تعتمد غالبية أبحاث الولاية التكوينية (١) نفيًا وإثباتًا على الموقف من مسألة علم المعصوم (عليه السلام)، فالذي نفى قال إن المعصوم لا يمتلك علما خاصا به كما فعل صاحب الشبهات التي مرت، والذي قال بالإثبات أكد أن للمعصوم (عليه السلام) علما خاصا به لم يتح لأحد غيره، وهذا العلم لا يقتصر على ما ورثه عن غيره، وإنما هو قابل للتجدد، وتجده غير اكتسابي، وإنما هو إلهامي. وعلى الرغم من أن صاحب الشبهة لم يأت بدليل إلا ما ذكره من وجود بعض الآيات التي تتحدث عن اختصاص علم الغيب بالله سبحانه وتعالى (٢)، وما أردفه

١ - من العجيب أن أحد المدافعين عن أفكار التحريفية الجديدة، وفي معرض عرضه لأدبه الجرم في الحوار! اعتبر أن الولاية التكوينية هي العلم بما كان وبما سيكون!. (مرجعية المرحلة وغبار التغيير: ٢٤ الطبعة الأولى - دار الأمير - بيروت).

٢ - لصاحب الشبهة توجيهين أولهما نلحظه في مقالة (الأصالة والتحديد المنشور في مقالة مجلة المنهاج في عدها الثاني، والذي عبر فيه عن كون علم المعصوم من جملة الأمور المتحولة التي لم يحس النقاش الشأن بيقينيتها!).

وثانيهما ما صرح به في مقال (صورة النبي محمد (ص) في القرآن الكريم) المار، والذي ينفي وجود هذا العلم لدى الرسول (ص) فضلا عن غيره، وهو القول الذي قال به بعض المتشددین من أهل العامة على خلاف ما يذهب الكثير منهم إلى عكسه من خلال التحدث عن الإمكانية الواقعية لأن يمتلك شخص ما العلم بالمغيبات بالتبع لاستقلالية العلم الإلهي ورجوع أولي إلى كتاب دلائل النبوة للبيهقي أو أبو نعيم وابن حجر في الفتاوى الحديثية وابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج يكشف ذلك.

ومن خلال ملاحظتي لأفكار الرجل وطبيعة طروحاته أعتقد أن الاتجاه الثاني هو ما يعول عليه وليس الأول.

من شبهة استجلاب الخير ونفي الضر، إلا أنه تغافل أو
أغفل أن الآيات لم تتحدث عن هذا الاختصاص فحسب،
وإنما تحدثت عن وجود استثناءات أيضا فهذا هو قوله
تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا* إلا من ارتضى
من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) (١)، وهذا
الاستثناء الملحوق بكلمة (إلا) يظهر بوضوح أن ثمة
مقدارا من علم الغيب ستفيض به الذات الإلهية على من

١ - الجن: ٢٦ - ٢٧.

وصف بأنه رسول مرتضى من قبله جل وعلا وهذا المقدار مهما كان حجمه يلغي فكرة الاختصاص الصارم الذي لا يتخلف ولا تفل صرامته، وواضح أن الله جل وعلا إن ارتضى رسول أن فلن يتخلف عن رضائه لرسول الله (ص)، وكل شئ صلح لرسول الله (ص) صلح للإمام (عليه السلام)، وما دام الأمر كذلك، فما المانع في ف أن نقول أن الله جل جلاله أفاض علم غيبه إلى الرسول وما يمثل مقامه الرسالي، لا سيما وأن العديد من الآيات قد تحدثت عن وجود إichاء إلهي بعلم الغيب لرسوله ما في قوله: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) (١)، وقوله: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها) (٢)، وقوله: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) (٣) كما وتحدثت جملة أخرى من الآيات من إيتاء علم خاص للنبي ما في قوله عن لوط (عليه السلام): (ولوطا أتيناها حما وعلما) (٤)، وقوله عن سليمان وداود (عليه السلام): (ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكما وعلما) (٥)، وكذا قوله تعالى: (ولقد أتينا داود وسليمان

١ - آل عمران: ٤٤.

٢ - هود: ٤٩.

٣ - يوسف: ١٠٢.

٤ - الأنبياء: ٧٤.

٥ - الأنبياء: ٧٩.

علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباد المؤمنين (١)، وكذا عن موسى (عليه السلام) (ولما بلغ أشده واستوى أتيناه حكما وعلما) (٢)، ولم يكن الأمر ليتوقف عند النبي فحسب، بل امتد ليشمل من له درجة الولي كما في حديث القرآن عن الخضر (عليه السلام) (٣) (فوجدنا عبدا من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلماناه من لدنا علما) (٤) وكل هذه تتحدث وبوضوح عن وجود جعل إلهي للمعصوم (عليه السلام) يتمثل باصطفاء علمي له من قبل الله، ومعلوم أن هذه العلوم ليست علوما بمستطاع البشر العادي أن ينالها، ضمن طرق تحصيل العلم المادية والمتعارفة، وإلا لما قرنت بكلمة (الإيتاء)

١ - النمل: ١٥.

٢ - القصص: ١٤.

٣ - لم يثبت لدى أهل التحقيق كون الخضر (عليه السلام) كان نبيا، وقد أبهمت الروايات الشريفة التي تحدثت عن حياته وشؤونه هذه الخاصية، والذي عليه الإجماع أنه كان وليا نم أولياء الله، وقد ناقش البعض كونه إماما، ولكن رد بأن الإمام ينبغي أن يلحق نبيا مشخصا فيكون وصيا له، وحيث أن الخضر لم يتبع نبيا محمدا، وحياته الطويلة مرت بالعديد من الأنبياء فيهم نبينا (ص)، فلا يصح عندئذ عده إماما، وهو الأقرب والله العالم.

٤ - الكهف: ٦٥.

التي نستوحيه منها معنى الهبة الخاصة والتميزة. ولئن كان في حديث صاحب الشبهة عن إنشائية الولاية التكوينية وعدم فعليتها ما يمكن تعميمه على شبهة نفي علم المعصوم (عليه السلام)، فرده يكون بنفس الرد وبنفس الدليل.

من كل ذلك نجد أن الشبهة في مفادها الأول سالبة بانتفاء الموضوع، ويمكن التخلص من تبعاتها من خلال مفهوم عدم الاستقلالية العلمية، وكون علم المعصوم (عليه السلام) يأتي في طول العلم الإلهي وهو كل عليه، وليس في عرضه مما يستلزم القول بالاستقلالية.

ولكن ذلك لا يمنع من أن ننساق إلى الحديث عن مواصفات علم المعصوم (ع) الذي تحدثت عنه آيات كثيرة، وفصلته روايات متواترة ومستفيضة، خصوصا، أن هناك أسئلة جدية حول الكثير من الوقائع التاريخية التي تقف من موضوع علم المعصوم (عليه السلام) موقفا يوحى بالتضاد، وقد التبس أمره على الكثير ممن لديهم مقدار من العلم، فكيف بعامّة الناس. ***

وسنسير في البحث ضمن الحديث عن عدة مقامات

منها:

أ - معرفة علم الغيب منزلة روحية:
تفيد العديد من الآيات القرآنية أن التعرف على
مقامات علم الغيب هو منزلة روحية يستطيع أن ينالها من
لديه قدرة الوصول إلى هذه المنزلة، بمعنى أنها في
المقام الأول اكتسابية (١) كما قوله تعالى: (كلا لو

١ - هذا الكسب ليس هو الكسب المتعارف بحيث يكون هذا العلم علما حصوليا، وإنما - وكما تظهر الكثير من الروايات الصحيحة - هو كسب قائم على أساس تمرس ومران روحي خاص، وقد عبرنا عنه بالكسب هنا مجازا كي نوضح مقصودنا أعلاه، ولربما نجد توضيح ذلك فيما كتبه الإمام الصادق (عليه السلام) لعبد الرحيم القصير على يد عبد لملك بن أعين: سألت عن المعرفة ما هي؟ فاعلم رحمك الله أن المعرفة من صنع الله عز وجل في القلب مخلوقة، والجحود صنع الله في القلب مخلوق، وليس للعباد فيها من صنع، ولهم فيها الاختيار والاكتساب فبشهوتهم الإيمان اختاروا المعرفة، فكانوا بذلك كافرين جاحدين ضاللا وذلك بتوفيق الله لهم، وخذلان من خذله الله فبالاختيار والاكتساب عاقبهم الله وأثابهم. (التوحيد: ٢٢٦ - ٢٢٧ ب ٣٠ ح ٧).
وهنا يظهر لنا أن هذا العلم ليس علما من النوع الكسبي الحصولي - أي ما يمكن الحصول عليه بوسائل الكسب المتعارفة - وإنما هو نور يتأتى من إزالة الحجب والرين الموجود على القلوب نتيجة مجاهدة الآثام والامتناع عن مقارفة الذنوب فينفتح صاحب هذا القلب - وكل حسب استعداداته ولياقاته الذاتية - على عالمين وبصورة تدريجية، أولهما، عالم مضي أو ما نسميه بعالم الدر يوم أشهد الله الخليقة على أنفسهم بمفاد قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) [الأعراف / ١٧٢]. فهذه رؤية والرؤية كي تتم تحتاج إلى إزالة ما يحجب عنها.
والعالم الثاني هو عالم الحاضر وفي ذلك أخبار كثيرة.

تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين
اليقين) (١) فهذه الآية تتحدث عن رؤية الجحيم لو تم
اكتساب علم اليقين، وما هو مفروغ عنه أنها ليست من
آيات يوم القيامة، ففي يوم القيامة يطلع الجميع كفره
ومسلمين على الجحيم، فليس ثمة حاجة لعلم اليقين
عندئذ، وليس أدل على ذلك من مجيء آية (ثم لترونها
عين اليقين) بعد ذلك مباشرة لتشير إلى وجود رؤيتين
الأولى سببها علم اليقين، وأخرى لا يعلل سببها، وإنما
يجعل مشاهدتها شاملة للجميع، لذلك لم يعبر عنها

١ - التكاثر: ٥ - ٧.

بالعلم، وإنما بالرؤية المحضنة، وعليه فلئن لم تكن الآية الشريفة ناظرة إلى يوم القيامة فإنها حتما ناظرة إلى الدنيا، ومن ثم للتحدث عن إمكانية الاطلاع على أمر من أمور الغيب دون أن تقيده بقيد النبوة أو الإمامة أو ما إلى ذلك، بل للتحدث عن مفهوم كلي.

هذا وللعلامة الطباطبائي (أعلى الله مقامه) كلام لطف في هذا المقام منه: (الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة، وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه قوله تعالى: (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين) (١)، وهذه الرؤية قبل يوم القيامة غير محققة لهؤلاء المتلهين، بل ممتنعة في حقهم لامتناع اليقين عليهم، ثم قال عن الآية الأخرى: المراد بعين اليقين نفسه، والمعنى لترونها محض اليقين، وهذه بمشاهدتها يوم القيامة.. فالمارد بالرؤية الأولى رؤيتها قبل يوم القيامة، والثانية إذا دخلوا) (٢)

ومثل ذلك الكثير من الآيات التي تتحدث عن رؤية الأبصار والأفئدة كما في قوله تعالى: (أفلم يسيروا في

١ - الأنعام: ٧٥.

٢ - الميزان في تفسير القرآن ٢٠: ٣٥٢.

الأرض لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لا
تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) (١) وكذلك
قوله: (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك
وهم لا يبصرون) (٢) وفي كلا الآيتين تأكيد على أن ثمة رؤية غير
رؤية البصر العادية التي يشترك فيها كل الناس،
هي رؤية القلوب ويؤكدها قوله تعالى: (ما كذب الفؤاد ما
رأى) (٣)، ومثل ذلك قوله تعالى: (يقلب الله الليل والنهار إن
في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) (٤).

ولا يحتاج المرء إلى عسير فهم حتى يتبين له إن هذا
التأكيد على رؤية البصيرة والفؤاد، إنما تكون بصورة غير
مادية، لأنها لو كانت مادية، لاشترك بذلك الكافر
والمشرك مع الموحد والمؤمن على حد سواء، ولكن
ولأن القرآن يعتبر رؤية البصائر ميزة من مزايا التقوى
الإلهية العالية كما عبر في مدحه لإبراهيم وذريته وإسحاق
ويعقوب (عليه السلام) في قوله تعالى: (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق

١ - الحج: ٤٦.

٢ - الأعراف: ١٩٨.

٣ - النجم: ١١.

٤ - النور: ٤٤.

ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) (١) إذن فإن هذه الرؤية غير مادية، وأن تكون غير مادية فهي ناظرة إلى علم الغيب حتما.

ب - الاطلاع على علم الغيب أمر ناجز: تلهج العديد من آيات القرآن بأن الاطلاع على الغيب ليس ممكنا وحسب على مستوى النظرية، وإنما هو أمر سبق وأن ناله العديد من شخصيات التاريخ من أنبياء وأوصياء وغيرهم، كما يظهر ذلك من قوله تعالى: (كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين) فهنا يتحدث القرآن عن أن الله قد أراه كل ملكوت السماوات والأرض كما يفيد إطلاق الآية، وكما توضحه الروايات الخاصة بتفسير هذه الآية، وكذا ما تفيدته قصة الخضر (عليه السلام) مع نبي الله موسى (عليه السلام)، وكذا ما تفيدته الآية الكريمة التي جاءت على لسان نوح (عليه السلام) (وأعلم من الله ما لا تعلمون) (٢)، وكذا ما جاء على لسان يعقوب (عليه السلام) (وأعلم من الله ما لا

١ - ص: ٤٥.

٢ - الأعراف: ٦٢.

تعلمون) (١) ومثل ذلك كثير.
بل لو تأملنا في القرآن لوجدنا أنه يتحدث عن أن
العلم بالغيب ناله أناس عاديون لم يكونوا بدرجة الأنبياء
والرسل والأوصياء، فهذا هي أم موسى (عليه السلام) تحدث
بمستقبل ابنها، وما سيؤول إليه مصيره، من دون أن
تقترن عملية الإيحاء بالمهام الرسالية حتى: (وأوحينا إلى
أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا
تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين). (٢)

١ - يوسف: ٨٦.

واستباقا لما قد يتعرض عليه البعض بالقول بأن مراد الآية هو
أنه ينفي عنهم علم ما لم يعلموا من الشؤون العامة التي لا
تعني بالضرورة علم الغيب، والاعتراض ليس في محله، لأن
نفي النبي (عليه السلام) هنا هو نفي كلي عن أهل زمانه، ولو كان
العلم الذي يتحدث عنه علما عاما، فإنه ليس من المستبعد
عقليا أن يأتي من يعلم هذا العلم، ولهذا فإن وصف هذا
العلم بأنه من الله، واقتترانه بنفيه عنهم نفيًا تاما يستدعي أنهم
لن يدركوه مهما أوتوا من قوة.

٢ - القصص: ٧.

نقدم ذلك لنقول أن الأمر ليس بالضرورة يقتصر بحاجة
الرسالة إلى ذلك كما يدعي الرجل في مناسبات عديدة،
وإنما هي كرامة من الله جل وعلا يؤتيها من يشاء من عباده.

وأن يحصل ذلك مرة فما الضير في حدوثه مرات
ومرات؟ ولئن أرى الله جل جلاله بعض عباده جانبا من
علم الغيب ترى أيضا على من مثل رسول الله (ص)
بذلك؟. (١)

ولو تفحصنا في آيات القرآن لرأينا أنها أولت
الرسول (ص) مقامات ومشاهد يكون معها أمر علم الغيب
من الأمور البسيطة، فالذي يبلغ ما بلغ عند
سدرة المنتهى، وبالطريقة التي يتحدث فيها القرآن عنها في
سورة النجم: (والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى *
وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى *
ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب
قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما

١ - نقل المرحوم السيد عبد الرزاق المقرم (رحمه الله) في كتابه مقتل
الحسين (عليه السلام) عن الحسكاني المفسر قوله: إن امتناع
الكرامة من الأولياء: إما لأن الله ليس أهلا لأن يعطي المؤمن
ما يريد، وإما لأن المؤمن ليس أهلا لذلك.
وكل منهما بعيد فإن توفيق المؤمن لمعرفته لمن أشرف
المواهب منه تعالى لعبده، فإذا لم يخجل الفياض بالأشرف،
فلأن لا يخجل بالدون أولى. (مقتل الحسين (عليه السلام):
٥٣ - ٥٤ نقلا عن النور السافر في أعيان القرن العاشر لعبد
القادر
العيدروسي ص ٨٥).

رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة
المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ
البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١) أقول: من
له هذه المرتبة ترى أيعصى عليه أمر دونها بكثير؟! فما
لكم كيف تحكمون؟.

ج - حجة قول المعصوم (عليه السلام) في ذلك
لدينا جمع غفير من الروايات الصحيحة الصادرة
عن المعصوم (عليه السلام) والتي تجمع على أنه له (عليه السلام) علمه
الخاص الذي لا ترقى إليه علوم البشر، وأن هذا العلم هو
ما ورثه من الأنبياء (عليهم السلام)، وما أوحاه إليه روح القدس،
وأنه لا يتعلق الماضي فحسب، بل أنه يزداد في كل
لحظة، حسب ما يقتضيه مقام الرسالة، وقبل أن نورد
مقتطفات من روايات أهل
أن أشير البيت (عليهم السلام)
وهي إننا لو قلنا بأن آدم علم علما وصفه القرآن
الكريم بهذا النص: (وعلم آدم الأسماء كله ثم عرضهم على
الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا

١ - النجم: ١ - ١٨.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (١)، وأن هذا العلم مما لم تطاله نفس الملائكة كما توضح الآية، ثم تفضل الله جلّت قدرته بتعليم أنبيائه وصلا إلى نبينا (ص) بعلوم الغيب وما إلى ذلك وبالضرورة التي توضحها العديد من الآيات الكريمة، فهل يا ترى كان ذلك لغاية خدمة أهداف الرسالة أم لأن فإذا كان ذلك من أجل خدمة هذه الأهداف، فهل انتفت حاجة الرسالة إليها بعد الرسول) ص (بحيث أن هذا العلم لم يبق وجوده مبررا على سطح الأرض فرفعه الله إلى السماء؟! (٢)

١ - البقرة: ٣١ - ٣٢.

٢ - وهذا مفاد الكثير من الروايات الصحيحة أذكر منها على سبيل المثال: ما في صحيحة يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن ربعي بن (؟) عبد الله بن الجارود، عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن العلم الذي هبط مع آدم لم يرفع، وأن العلم يتوارث، وما يموت منا علام حتى يخلفه من أهله من يعلم علمه أو ما شاء الله. (بصائر الدرجات: ١٣٤ ج ٣ ب ١ ح ١).

(؟) كذا هو الصحيح وما في الأصل: عن وهو تصحيف ظاهر.

وفي موثوقة يعقوب بن يزيد، عن الحسن بن علي بن فضال قال: حدثنا محمد بن القاسم، عن أبيه الفضيل بن يسار، (؟؟) قال سمعت أبا جعفر (الباقر) (عليه السلام): إن العلم الذي نزل مع آدم على حاله، وليس يمضي منا عالم إلا خلفه من يعلم علمه، كان علي عالم هذه الأمة. (بصائر الدرجات: ١٣٦ ج ٣ ب ١ ح ٦).

(؟؟) كذا هو الصحيح وفي الأصل: عن أبيه عن الفضيل بن يسار، وما فيه من تصحيف ظاهر، ومنشأ التوثيق تابع لابن فضال لما تقدم من القول بشأن واقفيته.

وفي صحيحة أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن عمر بن أبان قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: العلم الذي نزل مع آدم ما رفع، وما مات عالم فذهب علمه. (نفس: ١٣٦ ج ٣ ب ١ ح ٧).

وفي صحيحة أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن بريد بن معاوية العجلي، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن عليا كان عالما، وإن العلم يتوارث، ولن يهلك عالم إلا بقي من بعده من يعلم مثل علمه أو ما شاء الله. (نفس: ١٣٨ ج ٣ ب ٢ ح ٢).

(۲۰۰)

من الواضح أن لا أحد يتجرأ لقول ذلك لأنه قول لا يمكن التدليل عليه أبداً، وحيث أن الثابت اليقيني هو نزول العلم، وأن ارتفاعه مما لا يمكن التدليس عليه، بل إن نفس الحاجة التي استدعت نزولهما زالت قائمة حتى بعد رحيل النبي الخاتم (ص) (١)، إذن أصبح من المنطقي القول بأن من خلف رسول الله (ص) هو الذي ورث العلم

١ - بل إن كل الدواعي التي تبرهن على الإمامة تستلزم البرهنة على هذا العلم. فلا تغفل!.

الإلهي (١)، خصوصا وأنا نجد في قصة الخضر (عليه السلام) ما يجعلنا نرى أن وليا من أولياء الله مكن من علم لم يمكن منه نبي عصره وهو موسى (عليه السلام) بحيث أن نفس هذا النبي يطلب من الخضر أن يعلمه كما تشير الآية: (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) (٢)، وهي قصة تجعلنا لا نتأبى أن يعلم الوصي علم النبي، وهذا ما يؤكد صحة ما تواتر على نقله أصحاب الحديث عن لسان أمير المؤمنين (عليه السلام): علمني ألف باب من العلم يتفتح لي من كل باب ألف باب (٣). فتأمل.
وهذا الفهم تؤكد الروايات الصحيحة الكثيرة المنقولة عن أهل البيت (عليهم السلام) وهو مفادها أذكر منها ما يلي:

١ - ففي صحيحة الفضيل فيما رواه محمد بن

-
- ١ - وفي ذلك روايات كثيرة أخرى سنشير لبعضها عما قريب.
 - ٢ - الكهف: ٦٦.
 - ٣ - أنظر في ذلك كتاب فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي، لأحمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني وهو من أئمة محدثي العامة، فكيف بك مع الخاصة المجمعين على ذلك!.

الحسين، عن أحمد بن ممد بن محمد بن أبي نصر عن حماد عثمان، عنه، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه قال: كانت في علي سنة ألف نبي وقال: أن العلم الذي نزل مع آدم لم يرفع، وما مات علام فذهب علمه، وأن العلم ليتوارث، أن الأرض لا تبقى بغير عالم (١).

٢ - وعن العباس بن معروف، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة في صحيحته، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن العلم لم يزل مع آدم لم يرفع، والعلم يتوارث، وكان علي عالم هذه الأمة، وأنه لن يهلك منا عالم إلا خلفه من أهله من يعلم مثل علمه، أو ما شاء الله (٢).

٣ - وعن أحمد بن إدريس، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، عن شعيب الحداد (٣)، عن ضريس الكناسي قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) وعنده أبو بصير فقال أبو عبد الله (عليه السلام): عن داود ورث

١ - بصائر الدرجات: ١٣٤ ب ١ ح ٢.

٢ - نفسه: ١٣٥ ج ٣ ب ١ ح ٤.

٣ - سند البصائر هكذا: أيوب بن نوح، عن صفوان بن يحيى، عن شعيب الخزاز، ومعلوم أن الخزاز هنا تصحيف لكلمة الحداد، كما لا يخفى.

علم الأنبياء، وإن سليمان ورث داود، وإن محمدا (ص) ورث سليمان، وإنا ورثنا محمدا (ص) وإن عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى فقال لو بصير: إن هذا لهو العلم، فقال: يا أبا محمد ليس هذا هو العلم (١)، وإنما العلم ما يحدث بالليل والنهار، يوما بيوم وساعة بساعة (٢).

٤ - وعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن أبي نصر، عن ثعلبة، عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: لولا إنا نزاد لنفدنا، قال: قلت: تزدون شيئا لا يعلمه رسول الله (ص) قال: أما أنه إذا كان ذلك عرض على رسول الله (ص) ثم على الأئمة ثم انتهى الأمر إلينا (٣).

٥ - وفي موثوقة (٤) محمد بن عبد الجبار، عن الحسن بن علي بن فضال، عن حماد بن عثمان، عند عبد

١ - أي ليس تمامه.

٢ - الكافي ١: ٢٢٥ ب ٣٣ ح ٤. وبصائر الدرجات: ١٥٥ ج ٣ ب ١٠ ح ١.

٣ - الكافي ١: ٢٥٥ ح ٣.

٤ - لموضع الحسن بن علي بن فضال، رغم أن بعض الأخبار تؤكد أنه رجع عن واقفيته.

الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: قد ولدني رسول الله (عليه السلام) وأنا أعلم كتاب الله وفيه بدء الخلق، وما هو كائن إلى يوم القيامة، وفيه خبر المساء وخبر الأرض وخبر الجنة وخبر النار، وخبر ما هو كائن أعلم ذلك كأنما أنظر إلى كفي أن الله يقول: فيه تبيان كل شيء (١).

٦ - وفي موثوقة (٢) محمد بن عيسى، عن الحسين ابن سعيد، عن جعفر بن بشير، عن عبد الكريم، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: يا أبا بصير إنا أهل بيت أوتينا علم المنايا والبلايا والأنساب والوصايا وفصل الخطاب، عرفنا شيعتنا كعرفان الرجل أهل بيته (٣).

٧ - وفي صحيحة يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن مرزم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: علم رسول الله ص (عليه السلام) ألف باب ففتح له من كل باب

١ - بصائر الدرجات: ٢١٧ - ٢١٨ ج ٤ ب ٨ ح ٢. وقوله (عليه السلام) الأخير إشارة إلى قوله تعالى في سورة النحل: ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين).

٢ - لموضع عبد الكريم وهو عبد الكريم بن عمرو، وإن كانت روايته هنا قبل وقفه، ورغم أن هناك كلام في واقفيته.

٣ - لبصائر الدرجات: ٢٨٨ ب ٢ ح ١٣.

ألف باب (١).

٨ - وفي صحيحة أحمد بن محمد، عن الحين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن داود بن فرقد، عن الحرث بن المغيرة النصري قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): جعلت فداك الذي يسأل عنه الإمام وليس عنده فيه شيء من أين يعلمه؟ قال: ينكت في القلب نكتا، أو ينقر في الأذن نقرا (٢).

٩ - وفي صحيحة أحمد بن محمد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن حماد بن عثمان، عن الحرث بن المغيرة النصري قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): ما علم عالمكم جملة يقذف في قلبه وينكت في أذنه؟ قال: فقال: وحي كوحى أم موسى (٣).

١٠ - وفي صحيحة يعقوب بن يزيد، عن محمد

-
- ١ - نفس: ٣٢٢ ج ٦ ب ١٦ ح ١.
٢ - نفسه: ٣٣٦ ج ٧ ب ٣ ح ١. وقوله: ينكت من النكت بمعنى التأثير في الشيء. (لسان العرب ١٤: ٢٧٧ - ٢٧٨).
أما النقرة والمناقرة فهو: مراجعة الكلام بين اثنين وبثهما أحاديثهما وأمورهما. (لسان العرب ١٤: ٢٥٧).
٣ - نفسه: ٣٣٧ ج ٧ ب ٣ ح ١٠.

ابن إسماعيل بن بزيع قال: سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: الأئمة علماء صادقون مفهمون محدثون (١).

١١ - وفي صحيحة أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن ابن مسكان، عن ضريس قال: كنت مع أبي بصير عند أبي جعفر (عليه السلام) فقال له أبو بصير: بما يعلم عالمكم جعلت فداك قال: يا أبا محمد إن عالمنا لا يعلم الغيب، ولو وكل (٢) الله عالمنا إلى نفسه كان كبعضكم، ولكن يحدث إليه ساعة بعد ساعة (٣).

١٢ - وفي مؤيدة (٤) أحمد بن محمد، عن أبي عبد الله البرقي والحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحبي، عن بشير الدهان، عن حمران بن أعين، عن جعيد الهمداني قال: سألت علي بن الحسين: بأي حكم تحكمون؟ قال: نحكم بحكم آل داود فإن عينا

١ - نفسه: ٣٣٩ ج ٧ ب ٥ ح ١.

٢ - وكل: ترك.

٣ - نفسه: ٣٤٥ ج ٧ ب ٧ ح ٢.

٤ - لموضع جعيد الهمداني صاحب الرسول (ص) (وأمر المؤمنين (عليه السلام) والحسين (عليهما السلام)، حيث وردت نفس الرواية وبنفس النص ولكن عن الإمام الصادق (عليه السلام) مما أجبر الضعف الناشئ من كون جعيد يعد مهملًا.

شيئا تلقانا به روح القدس (١).

١٣ - وفي صحيحة محمد بن الحسين، عن صفوان ابن يحيى، عن أبي خالد القمط، عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): أنبياء أنتم؟ قال: لا - إلى أن قال - : قلت: فيما تحكمون؟ قال: بحكم آل داود فإذا ورد علينا شيء ليس عندنا تلقانا به روح القدس. (٢)

١٤ - وفي صحيحة أحمد بن محمد، عن الحسين ابن سعيد، عن النصر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله تبارك وتعالى: (و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) (٣) قال: خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله (ص) يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده (٤). وفي الباب وغيره من الأحاديث التي مرت عشرات

-
- ١ - نفسه: ٤٧١ ج ٩ ب ١٥ ح ٢. وبنفس المؤدي في معتبرة عمار الساباطي عن الإمام الصادق ح ٣.
٢ - نفسه: ٤٧٢ ج ٩ ب ١٥ ح ٥.
٣ - الشورى: ٥٢.
٤ - نفسه: ٤٧٥ ج ٩ ب ١٦ ح ٢.

الأحاديث فراجع مظانها إن رغبت بالزيادة.

ولكن ما بال الأخبار المتعارضة؟
ومن الطبيعي بعدئذ أن نواجه هذا الاعتراض، وهو
وجود بعض الروايات التي تشير إلى أن الإمام لم يكن
لديه العلم الذي نتحدث عنه ما مر من لروايات ومن
جملتها رواية الاحتجاج (١) التي ينقلها محمد بن علي بن
هلال الكرخي (٢) عن الإمام الحجة المنتظر (عليه السلام) والتي
يقول فيها: يا محمد بن علي تعالى الله وجل عما
يصفون سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاؤه في عمله
ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره، كما قال في

١ - وهي نفس الرواية التي وزعها - كمنشور - تيار الانحراف
في الشام ليغفر بالعامية ويدفعهم عن معتقدتهم الخاص بالعلم
الإلهي لأهل البيت (عليهم السلام) في أواخر عام ١٩٩٧.
٢ - محمد بن علي هذا مجهول الحال لم يذكره أحد من علماء
الرجال، فلا يعول على الخبر من جهة السند، وطريق
صاحب كتاب الاحتجاج إليه مبهم إذ أنه أرسل الخبر إليه
إرسالاً كما هو عادته في الكثير من الأخبار، ولهذا فإن
القيمة السندية للخبر لا وجود لها.

محكم كتابه تباركت أسماؤه: (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) (١)
وأنا وجميع آبائي من الأولين: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من النبيين، ومن الآخرين محمد رسول الله وعلي بن أبي طالب وغيرهم ممن مضى من الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين، إلى مبلغ أيامي ومنتهاى عصري عبيد الله عز وجل يقول الله عز وجل: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * أقل كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) (٢) يا محمد بن علي قد أذانا جهلاء الشيعة وحمقاؤهم، ومن دینه جناح البعوضة أرجح منه.

فأشهد الله الذي لا إله إلا هو وكفى به شهيدا، ورسوله محمدا صلى الله عليه وآله، وملائكته وأنبياءه، وأوليائه وأشهدك وأشهد كل من سمع كتابي هذا أنني برئ إلى الله وإلى رسوله ممن يقول: إنا نعلم الغيب، ونشاركه في ملكه، أو يحال محلا سوى المحل الذي رضيه الله لنا وخلقنا له، أو يتعدى بنا عما قد فسرت له لك

١ - النمل: ٦٥.

٢ - طه: ١٢٤ - ١٢٦.

وبينته في صدر كتابي (١).
ومن جملة الروايات التي اعتمدت في هذا المجال
هي صدر رواية سدير فيما رواه عند عباد بن سليمان، (٢)
عن محمد بن سليمان الديلمي (٣)، عن أبيه (٤)، عن سدير
قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير
الرقبي ف مجلس أبي عبد الله (عليه السلام) إذ خرج إلينا وهو
مغضب فلما أخذ مجلسه قال: يا عجباه لأقوام يزعمون
إننا نعلم الغيب ما يعلم الغيب إلا الله، لقد هممت بضرب
جاريتي فلانة فهربت مني فما علمت في أي بيوت الدار
هي!! (٥).. وبقية الخبر يناقض صدره تماما. (٦) ولكن
اعتاد المعترض أن يذكر ذلك للاستشهاد بنفي العلم

-
- ١ - الإحتجاج: ٤٧٣ - ٤٧٤.
 - ٢ - مجهول الحال.
 - ٣ - ضعيف ومتهم.
 - ٤ - ضعيف ومتهم.
 - ٥ - إلى هنا ينتهي صدر الرواية المشار إليه، وسترى أن ما بعده يناقض صدره تماما.
 - ٦ - بصائر الدرجات: ٢٥٠ - ٢٥١ ج ٥ ب ٦ ح ٥. ونفس الرواية بإسناد مضطرب فيه تصحيف عن إبراهيم بن هاشم عن محمد بن سليمان بن سدير (الصحيح إبدال ابن هنا بعن) وبأدنى فارق. (بصائر الدرجات: ٢٣٣ ج ٥ ب ١ ح ٣).

الخاص بالمعصوم (عليه السلام) وأمثال ذلك.
وما نلاحظه على هذه الروايات وأمثالها بعد غض
النظر عن أسانيدھا (١) ما يلي:
أ - إن هذه الروايات ونظائرها ناظرة في الأصل إلى
نفي الاستقلالية عن الله، بل إن علومهم (صلوات الله
عليهم) هي تابعة عليه تبعية الفرع للأصل، وما تراه في
الأحاديث المتواترة عنهم بأنهم يعلمون علم الغيب، إنما
يصح مع نفي الاستقلالية، وما من أحد يمكنه القول بأن
علمهم (صلوات الله عليهم) في المغيبات ناجم عن
استقلالية عن علم الله جلّت قدرته، ولهذا فإن قولهم
(عليهم السلام) بأنهم لا يعلمون الغيب ليس مطلقا وما يقيد هذا
الإطلاق هو أقوال القرآن الكريم المؤكدة لوجود
مستثنيات في هذا المجال كما في قوله تعالى: (عالم

١ - فهي كما ترى في ضعفها، ولكن منهجنا - تبعاً لعلمائنا
الأعلام هو أن التشدد السندي إنما يطلب في مقام الفتوى
فحسب، وأما الروايات المتعلقة بالعقائد وأمثال ذلك فإنما
يطلب فيها أن تكون هاديا ودليلا على صحة المعتقد
وحدوده، وحيث أن أمور المعتقد من الشؤون العقلية التي لا
يجوز التقليد فيها، لذا فإن التشدد السندي لا يبقى ملحا
بصورة دائمة كما هو الأمر في عالم الفتيا!.

الغيب فلا يظهر على غيبه أحد * إلا من ارتضى من رسول) (١) وهي مقيدة مرة ثانية بما تحدثوا عنه ومارسوه بالفعل بكونهم يعلمون.

ب - أن هذه الروايات وما يماثلها إن كانت صحيحة فهي تبقى قليلة قياسا إلى الكثرة المتواترة التي تخالفها، ولهذا فإن هذه الكثرة كاشفة عن أن تلك القلة إما من الصنف الذي ينبغي تأويله كي ينسجم مع تلك الكثرة، وإما من المكذوب عليهم لذا لا ينبغي التوجه إليه.

ج - مسألة علم الغيب والأنبياء عن المغيبات مسألة لا تتحملها العقول العامة، وإنما هي مسألة من مسائل خاصة الناس، ولهذا فقد يأتي النفي وهو يتخذ من التقية ستارا، خصوصا وأن البواعث الموضوعية للالتزام بذلك كانت متوفرة بشكل كبير ودائم، وهذه البواعث ليست بالضرورة تتخذ صفة سياسية، بل لربما تتخذ صفة اتقاء جهل بعض العوام من الذين لا تحمل إفهامهم قدرة النظر إلى هذه الأمور بالطريقة التي ينبغي النظر فيها إليها، فيتجهون إما إلى التكذيب والتشنيع والاتهام، وإما إلى الغلو وكلاهما يتقيهما المعصوم (عليه السلام)، أو تتخذ صفة

١ - الجن: ٢٦ - ٢٧.

طائفية فيرتد الأمر بصورة سلبية عليهم وعلى عقيدتهم
(صلوات الله تعالى عليهم).

د - ولربما يشار إلى التعارض في بعض الأخبار
التي توحى بأن المعصوم (عليه السلام) قل الإخبار بالموضوع
كان يسأل عنه مستفهما، وهذه الطائفة من الأخبار إن
صحت ولم يمكن تأويلها لتنسجم مع تلكم الأخبار
الكثيرة، فإنها لن تكون في مسائل الرسالة وكل ما يمكن
ارتباطه بالقرآن فهما وتأويلا، لأن من المفروغ عنه أن
المعصوم (عليه السلام) يعلم بكل شؤون الرسالة وأدق
تفصيلاتها، ولهذا فهذه الطائفة من الأخبار تبقى في دائرة
الموضوعات الخارجية، وفي العلم بالموضوعات
الخارجية تتباين آراء الطائفة المحقة (أعلى الله شأنهم)،
فمنهم من لا يشترك ذلك، ولكنه لا يعثر على خبر أو أثر
يؤكد عدم التزامه لذا تراه وإن لم يلتزم بها في العنوان
الأولي فإنه يلتزم بها في العنوان الثانوي، حيث تفيد
الأخبار المؤكدة أنهم لم يكونوا يعلمون بها فحسب وإنما
كانوا يعلمون بعض أصحابهم عن أحوالها كما هو حال
أمير المؤمنين (عليه السلام) في تعامله مع سلمان الفارسي وميثم
التمار ورشيد الهجري وعمرو بن الحمق وكميل بن زياد
النخعي الذين كانوا على اطلاع ببعض علوم الغيب كما
في علم المنايا والبلايا والخطوب، ومنهم من اشترط

ذلك معتمدا على مثل هذه الأخبار، ونحن نعتقد أن عدم
الاشتراط هذا تحوم عليه بالفعل بعض الإثارات الواقعية
منها:

أن عدم هذا الاشتراط هو شأن عقلي في خصوص
إمامة الدين، فهو مع إمكانه العقلي فلربما أن إمامة الدين
لا تحتاج إلى العلم بالموضوعات الخارجية، غير أنه لا
دليل من الأخبار يدل عليه، وهذا الإمكان يضيق بنفسه
كثيرا إن نظرنا إلى أن القرآن الكريم قد تحدث عن
موضوعات خارجية أو لها نحو مساس بالموضوعات
الخارجية، وهم (صلوات الله عليهم) بالنظر لكونهم أمناء
على هذا القرآن، فمن الطبيعي أن يعلموا بهذه
الموضوع وبكل ما يتعلق بها من تفصيلات، ويضيق
هذا الإمكان أكثر إن قلنا بأن الإمامة إمامة الدنيا أيضا،
ومن الواضح إننا نقول بالإمامتين من دون فصل، وطالما
أننا نقول بذلك، فإن الكثير من الموضوعات الخارجية
كالشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية وما إلى ذلك
تدخل ضمن دائرة ضرورات الإمامة الدنيوية، وما نتحدث
عنه من اشتراط عقلي دلت الأخبار الصحيحة على عدم
الالتزام به، وتزداد هذه الدائرة ضيقا إلى حد التلاشي إذا
ما أضفنا إلى إمامة الدين والدنيا الإمامة الشهادة في الدنيا

والآخرة (١)، والتي تستدعي الشهادة على كل شئ جرى في الحياة الدنيا وهذه الشهادة لن تستوفي من دون وجود علم بكل تفاصيل الحياة لدنيا حتى يمكن معها الشهادة، فتأمل.

ومنها: إن لياقات الإمامة توجب أن يكون الإمام (عليه السلام) عالما بكل ما يجعله متفوقا على غيره، إذ ليس من المناسب أن يكون الإمام (عليه السلام) في مجلس ما - مثلا - وفيه من يفوقه علما في شأن خارجي فيكون الإمام (عليه السلام) كل عليه، - في الوقت الذين يفترض أن الإمام (عليه السلام) لا يحتاج إلى أحد غير الله، ولنا في جملة الشواهد المؤكدة ما يرد هذا الأمر، كما في بخوع الأطباء وعلماء الكيمياء والفلسفة والفلك والجبر وما إلى ذلك في زمانهم لعلومهم وهذه بمجموعها من شؤون الموضوعات الخارجية، وحيث أنه لا شاهد عليها من أن الإمام (عليه السلام) تلقى هذه العلوم بطرق الكسب الطبيعية، فلن يبقى إلا القول بأنه تلقاه من لدن طرق الغيب (٢).

١ - أنظر للتفصيل وللاستدلال كتابنا الإمامة بحث في الضرورة والمهام، ومن عنده علم الكتاب؟.

٢ - أنظر في ذلك بعض خطب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديثه عن دقائق في علوم الفيزياء والحيوان والفلك والطب وكذا أحاديث الإمام الصادق (عليه السلام) عن شؤون الفلسفة وعلوم الحيوان والطب والفلك في الكتابين المنسوبين له (؟) (الإهليلجة وتوحيد المفضل) المطبوعين في بحار الأنوار، وكذا علوم جابر بن حيان في الجبر والكيمياء المستقاة من حديث الإمام الصادق (عليه السلام).

(؟) أنظر كلامنا في تأكيد النسبة له (صلوات الله عليه) في تعليقتنا على المجلد الأول من كتاب بحار الأنوار في طبعة دار التعارف.

ومنها: أن الإمام (عليه السلام) لم نسمع منه ما يقيد مقدار علمه بالغيب، بل لربما تشير بعض الروايات إلى أنهم متى ما أرادوا العلم علموا (١)، وأن ما يفتح عليهم من

١ - كما في موثوقة أحمد بن الحسن بن علق بن فضال، عن عمر [و] بن سعيد المدائني، عن مصدق بن صدقة، عن عمار الساباطي، أو عن أبي عبيدة، عن عمار الساباطي قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام): عن الإمام أيعلم الغيب؟ قال: لأن ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء علمه الله ذلك. (بصائر الدرجات: ٣٣٥ ج ٧ ب ٢ ح ٤).

وهذه الرواية تؤيد ما ورد عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن بدر بن الوليد، عن أبي الربيع الشامي قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): العالم إذا شاء أن يعلم علم. (بصائر الدرجات: ٣٣٥ ج ٧ ب ٢ ح ١). وكذا ما ورد عن سهل بن زياد، عن أيوب بن نوح، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن بدر بن الوليد، عن أبي ربيع الشامي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن الإمام (العالم خ. ل) إذا شاء أن يعلم علم. (بصائر الدرجات: ٣٣٥ ج ٧ ب ٢ ح ٢).

طرق هذا العلم لكفي في أن يجعل طرق تدارك مثل هذه العلم ميسورة، بل إن ذلك دون ما لديهم من علوم بما لا يمكن المقايسة به.

وهناك ملاحظات أخرى لا يسع المجال لتدوينها ولكن لربما يجمعها جامع هو ما أشارت إليه روايات صحيحة متعددة في شأن أن العلم بالموضوع الخارجي كان متاحا للأئمة (عليهم السلام) كما في الصحيحة التي يرويها محمد بن الحسن الصفار، عن أيوب بن نوح، عن صفوان بن يحيى، عن شعيب (بن أعين الحداد) (١)، عن ضريس، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: إنما العلم ما حديث بالليل والنهار يوم بيوم وساعة بساعة (٢). وكذا صحيحة أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن ابن مسكان، عن ضريس قال: كنت مع أبي بصير عند أبي جعفر (عليه السلام) فقال له أبو بصير: بما يعلم عالمكم جعلت فداك؟ قال: يا أبا محمد إن عالمنا لأي علم الغيب، لو وكل الله عالمنا إلى نفسه كان كبعضكم ولكن

١ - ما بين القوسين منا للتوضيح.

٢ - بصائر الدرجات: ٣٤٤ - ٣٤٥ ج ٧ ب ٧ ح ١.

يحدث إليه ساعة بعد ساعة (١).
وفي صحيحة محمد بن عيسى، عن صفوان بن يحيى، عن شعيب الحداد، عن ضريس الكناسي قال:
كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فقال أبو عبد الله إن عندنا
صحف إبراهيم وألواح موسى فقال أبو بصير: إن هذا لهو
العلم! فقال: ليس هذا العلم إنما هو الأثره قال: إنما
العلم ما يحدث بالليل والنهار يوم بيوم وساعة بساعة. (٢)
وإذا ما كان هذا العلم متاحاً فإن الادعاء بخلاف
ذلك لا يصح لعدم قيام الدليل عليه على أقل التقادير.
لماذا يتجنب المعصوم المخاطر والضرر؟
يبقى علينا العودة ولو باختصار إلى ما تشير إليه
الوقائع التاريخية من أن المعصوم (عليه السلام) لم يتجنب
المخاطر إن كان علم بها مسبقاً، الأمر الذي يجعله يقدم
على التهلكة في حسب بعض الأفهام. (٣)
والجواب عن ذلك وإن كان الحديث عن الشبهة

-
- ١ - نفسه: ٣٤٥ ج ٧ ب ٧ ح ٢.
٢ - نفسه: ٣٤٥ ج ٧ ب ٧ ح ٦.
٣ - وهي أحد الشبهات التي يطرحها تيار الانحراف المعاصر.

السابقة قد استوفاه، ولكن نضيف إليه ما يقتضي المقام هنا: فقد عرفنا أن علم المعصوم (عليه السلام) من صنفين، صنف هو كعلمنا مع ما يمتازون به من صفاء ونقاء في التفكير، وصنف آخر من جهة علم الملكوت، وهم بهذا العلم يعلمون مستقبل الأمور، وعلم الملكوت فيه حسب الظاهر علم مبرم لا يختلف، وقسم آخر علم يمكن أن تغير فيه حالات كثيرة كما في حالات البداء وآثار الدعاء والأعمال الصالحة كصلة الرحم والصدقة وما إلى ذلك، فإن كان مستقبل المعصوم (عليه السلام) مرتبطاً بالقسم الأول من هذا العلم، فهو يستقبله استقبال التسليم والرضا بقضاء الله، ومن هو أولى منه في التعبد بالآية الشريفة: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضللاً مبيناً) (١) وفي ذلك لدينا روايات كثيرة.

وإن كان مرتبطاً بالقسم الثاني، فهو علاوة على ما ينبغي أن نذكر به من أنه ما من ضرورة تدعو لتطابق معيار السراء والضراء الموجودة لدى المعصوم (عليه السلام) مع معيار غيره من الناس، أقول: مع ذلك هو مخير كما تشير الروايات بين أن يستخدم الأساليب التي تنحو به إلى

مجال التنحي عن الضراء، وبين أن يتحمل آثارها صابرا محتسبا طلبا لثواب الله وعطائه (١)، وفي كل الحالات لا يكون تعرضه للضراء أمرا معيبا طالما أن لديه علم بمصالح الشريعة، وهي المصالح التي قد تتحقق بطرق التعرض للبلاء أكثر من غيره، والذي يتأمل أدنى تأمل في ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، وما تميزت به من تعرض الحسين (عليه السلام) إلى مظلوميات مأساوية شديدة، يدرك بركات الدرس الحسيني في تحمل الضرر. وقد يقال هنا كيف يمكن التوفيق بين ذلك وبين القضاء المحتوم؟ فإذا كانت صيغة القضاء المحتوم والمبرم قد حددت موته مثلا، فكيف يقال أن الإمام مخير في انتخاب أجله كما قال ثقة الإسلام الكليني (أعلى الله مقامه) (٢) وللجواب عن ذلك هناك عدة اتجاهات ولكن

-
- ١ - كما في الصحيحة التي يرويها ثقة الإسلام الكليني عن العدة، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن سيف ابن عميرة، عن عبد الملك بن أعين، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: أنزل الله تعالى النصر على الحسين (عليه السلام) حتى كان ما بين السماء والأرض، ثم خير: النصر أو لقاء الله، فاختر لقاء الله تعالى. (الكافي ١: ٢٦٠ ح ٨).
- ٢ - وصف الشيخ الكليني (رضوان الله تعالى عليه) أحد أبواب الجزء الأول من أصول الكافي بهذا العنوان: أن الأئمة (عليهم السلام) يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم. (الكافي ١: ٢٥٨).

نشير هنا وعلى عجل إلى: أن مسائل القضاء المبرم يمكن تخطيطها بمسائل الدعاء وأمثال ذلك، والأمر الآخر الذي يمكن فهم هذه المسألة من خلاله هو أن المعصوم يمكن أن يخير ما بين عدة صور للموت، عندئذ ينتخب الصورة التي تناسب مع ما يرغب من فضائل وكرامات عند الله، وهذه إحدى الأمور التي يتمايز بها الأولياء. والله العالم.

هذا ما أردنا تبيانه في شأن إثبات الولاية التكوينية وكونها حقاً طبيعياً للمعصوم (صلوات الله عليه) فإن كان فيها من فائدة للقارئ الكريم في التعرف على أحوال أئمتنا (عليهم السلام) فإنه أمني، وإن كان فيه أمر يحمد فالأمر إليهم (صلوات الله على أنوارهم)، وإن كان العكس - والعياذ بالله - فعذري أنني لست بقاصد غير مرضاة الله وأهل بيت نبيه صلوات الله عليهم) والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً.

استدراك

لم يكتف البعض بظلم المراجع العظام حتى مال إلى ظلم المرجع المظلوم الإمام الخوئي (قدس الله نفس الزكية) من خلال الكذب عليه وتقويله ما لم يقل، وكان من جملة هذه الأكاذيب هي قوله بأنه لم يكن يؤمن بالولاية التكوينية، وفضحا لهذه الفرية الشنيعة أورد نص كلامه (رضوان الله تعالى عليه) حيث قال ما نصه:
أما الجهة الأولى (١) فالظاهر أنه لا شبهة في ولايتهم على المخلوق بأجمعهم كما يظهر من الأخبار لكونهم واسطة في الإيجاد وبهم الوجود، وهم السبب في الخلق، إذ لولاهم لما خلق الناس لكنهم، وإنما خلقوا لأجلهم وبهم وجودهم وهم الواسطة في الإفاضة، بل لهم الولاية التكوينية لما دون الخالق، فهذه الولاية نحو ولاية الله

١ - أي الولاية التكوينية.

تعالى على الخلق. (١)
هذا وقد طلب مني بعض الأعزة بأن أدرج أقوال
العلماء والمراجع في هذا الصدد (٢)، فما وجدت في
الوقت سعة إلى ذلك.

-
- ١ - أنظر: مصباح الفقاهة في المعاملات تقريرات الميرزا محمد
علي التوحيد علي أبحاث الخارج لأية الله العظمى السيد
الخوئي ٥: ٣٣ دار الهادي - بيروت.
 - ٢ - أرسل لي أحد الأخوة اللبنانيين الأعزاء - ممن لم أعرف -
مصورات أقوال بعض الأعلام، ولعله كان يريد مني أن
أدرجها في الكتاب، ولكن حيز الكتاب لا يتسع ذلك فله
اعتذاري أو لأن أما شكري له فلساني أعجز لمن أن يشكر مثل
هذا الأخ العزيز، سائلا المولى العلي القدير أن يتولى
شكره.